الإيضاح والإشارة

لما أصاب الأمة من هزائم السقوف المنهارة

فرع الدراسات وخدمة التراث
الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م
ص.ب. الجمهورية اليمنية – عدن ٧٠٠١٤

الإيضاح والإشارة

لما أصاب الأمة من هزائم السقوف المنهارة

تأليف

أَبِي بَكْرٍ العَدَنِي ابْن عَلِيّ بْن أَبِي بَكْرٍ المَشْهُور

بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾

[المائدة: ٥٧]

شاهد الحال..

روى الطبراني بإسنادٍ جيدٍ عن معاذِ بنِ جبلٍ وأبي عبيدةَ قالا: قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلّم:

((إنّ هذا الأمر بدأ رحمةً ونبوةً، ثم يكونُ رحمةً وخلافةً، ثم كائن مِلكاً عضوضاً، ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأرضِ: يستحِلون الحرير والفروج والخمور، ويرزقون على ذلك وينصرون، حتى يلْقَونَ اللهَ عز وجلّ)).

الإهداء

إلى من بقي من ضحايا السقوفِ المُنهارة..

وإلى التائِبين في رحلَةِ الخَدماتِ العالِمية..

وإلى المُتطَلِعين مِن ((شبابِ المَرحلَةِ)) اغتنام مرحلةِ الصحوةِ سلباً وإيجاباً..

المؤلف

المقدمة

الحمد لله الذي قدر فهدى، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاء أحـوى، والصـلاة والسلام على سيدنا محمد المخاطب من مولاه: سنقْرِئُك فلا تنسى. إلاّ ما شـاءَ الله. إنه يعلم الجَهر وما يخْفَى . ونيسرك لليسرى [الأعلى: ٦-٩]، وعلى آله وأصحابه الكرام الأعلام، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم اللزام.

وبعد فإنه لما اختلط الأمر، وضاق الصدر، وتشوش الفكر على كثير من المسلمين، وطغى على العقول الخداع والمكر – وإنْ شئت فقُل: أنمـاطٌ مـن أعمـال الغـدر والسحر، قال تعالى : وسحروا أعين الناسِ واسترهبوهم وجاؤوا بسِحرٍ عظِـيم [الأعراف : ١١٦] - وخاصة في أمر الدين والتدين، ووصلت أصابع العبث إلى حرمـات الإسلام وحدوده الشرعية وضوابطه المرعية، واستثمر عدو الإسلام مرحلة الغثـاء أي استثمار. فجلَب على شعوب الملة بخيله ورجِلِه، وشـاركهم في الأمـوال والأولاد، وتضافر أولئك مع الشيطان على صنع الوعود والعهود، وخداع الوالد والمولود، حتى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملـوا؛ لمـا كان الأمر كذلك رأيت أن من الواجب على مثلي وأمثالي كشف بعـض غـوامض المراحل، ونـزع غشاء الزيف المتراكم عن عقليات المتأخرين، ليدركوا بيقين من هو العدو ومن هو الصديق ؟ وأين طريق النجاة وما هي أسباب الهلاك؟ مع علمي يقينـا أن القضاء والقدر يجري بأمر الله ولا راد لقضائه، وأن له في خلقه شؤون، وإنما أمـره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

و جت في بحثي هذا جاً منطقياً يعتمد على استقراء وقـائع التـاريخ وأحـداث

المراحل، مستفيداً من أطروحات المفكرين، وبحوث الباحثين، وما أفرزته تقارير الخبراء ومذكرات المختصين، الذين كان لهم دور فاعلٌ في توجيه المنطقة الإسلامية إلى سياسة **جحر الضب** المعاصرة، والكشف عن مسيرة الاستسلام بأقنعـة العلـم وشـعارات الترويض، المقتبسة من نصوص الملة والإسلام، تحريفـا وتزييفـا لثوابـت السياسـة والاقتصاد والتربية والتعليم والقضاء والأحكام، وأخيرا في مسألة التدين والديانة ذا ا.

إن إثارةَ هذه المسألة قضيةٌ مصيريةٌ لا مناص منها ولا مهرب عنـها.. ولابـد أ ـا –ومن خلال كشف أقنعتها المحبوكة، ونثر أوراقها المسبوكة، وتيسير فهم تعقيدا ا – ستساهم في تنوير العقل الإسلامي المعاصر ؛ ليضع نفسه بعد ذلك في الموقـع العـالمي المناسب، أو يرمي ذاته في أتون التسييس النفعي الكاذب.

وقد جعلته على مباحث ، وكل مبحث يتناول مسافة من مسافات الاتصال والانفصـال: اتصال الأمة بالسقوف السياسية الشرعية ، أو انفصالها بسبب السياسات المخادعة القمعية ، ولم أتعمق في تعليل مواقف السقوف المتمرحلة وثمرات مواقفها لأن البحث مخصوص بمسألة القرار ، وكيف تزدهر الأمة بوجوده ، وتنهار الأمة بفقدانه .

والمقصود بالازدهار عالمية المواقف وتماسك المبادئ ، وأما الا يار فتعدد الـرؤوس وتنوع المبادئ والأفكار ، وتشرذم الفئات والمواقف ، والتاريخ البعيد والقريب ومـا جرى فيه خير شاهد على ما نحن بصدده لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

والله من وراء القصد ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

النظر إلى السقوف السياسية أمر شرعي

إن الربط الواعي بين السياسة والتحول الفكري المبرمج في أي مجتمع مسألة هامـة وضرورية خلال مرحلتنا المعاصرة، وأكثر من ذلك أ ا تفسر لنا ما انبهم على كـثير من العلماء وغير العلماء من فشو المتناقضات والمنازعات ذات الصبغة العدائية بين أهل الملة الواحدة. وأن السقف السياسي هو المسؤول الأول عما يـدور منـذ عشـرات السنوات في المنطقة الإسلامية من الانحراف والانصراف والاختلاف، حيـث شـغل عشرات العلماء في ساحة الأمة بمسألة الردود والتأليفات والمناظرات وهلـم جـرا، حتى صار العلم **حلبةَ صراع** لنقض وإثبات المسائل الخلافية، وكأن الأمة لن تقوم لها قائمةٌ إلا بترسيخ قولٍ ما ضد قولٍ آخر.

وتطور الحال اليوم إلى استخدام الوسائل الإعلامية الحديثة، في معركـة المذهبيـة والطائفية والتيارية، تحت سمع وبصر السقوف السياسية المطاطيـة. وسـيظل الحـال كذلك في الأوراق الجديدة المهيئة لمنطقـة العـالم الإسـلامي حـتى تسـتفيق أو -لا قدر الله- حتى يدمر بعضنا البعض ونتمزق شر تمزيق.

إن مسألة النظر إلى **السقوف السياسية** أمر شرعي يلزمنا به الإسلام، وتدعونا إليه الملة، لا لنقض سياسة الحكم في الواقع. وإنما لنحجمها ونضعها في موقعها الصحيح، ونرتقـي من نـزاع العامة ومناظرات الخاصة إلى المقتل الفاعل في الجسد المتداعي.. المقتل الـذي نفذ منه سهم العدو المتربص، ودخل إلى قلب الأمة، ينهشها شأ، ويربطها رغمـاً عـن استقلاليتها الروحية والمادية، بعجلة السياسة الاستثمارية العالمية.

إن مفهوم **الفئة** في العالم الإسلامي مفهوم يقترن بمرحلةٍ سياسيةٍ معينةٍ، كما أن تسمية

الدول والجماعات والأحزاب أيضا يقترن بمرحلةٍ سياسيةٍ معينةٍ، وإذا نحن تجاوزنا مسألة التعليل والتحليل للفئات المتناحرة والدول المتصارعة في العالم الإسلامي قديماً ؛ فإننا لا نستطيع أن نتجاوز هذه المسألة بعد أن سقط قرار دولة الإسلام.

فالمرحلة التي سقط فيها قرار الإسلام كدولة، كانت مرحلة جديدة في العالم كله، وهي مرحلة **استثمار المؤامرات**. وهذه المرحلة جديرةٌ بالدراسة الواعية المتأنية دراسةً علميةً تاريخيةً.. دراسةً منفصلةً تماماً عما سبقها من مراحل الدول الإسلامية ومجريات أحداثها . وبالتالي ستبرز لنا من خلال هذه الدراسة أشكالُ الدول الجديدة ومهماتها الخطرة في العالم الإسلامي المتمزق، وما أفرزته هذه الدول من **خدمةٍ انهزاميةٍ أمام سياسة الكفر** وبرامجه الفكرية في العالم الإسلامي.

فمنذ أن رسخ الكافر سياسته العالمية في أمة القرآن على رأس مرحلة الغثاء؛ والعالم الإسلامي يعاني من خطر السقوف المنهارة.

وتبدأ هذه السقوف بالهرم السياسي في المجتمعات، وهو ما يسمى بالحكم، أو مركز القرار.

وسواء كان الواقع المعاش يفرض نفسه ويلزمنا بقبول ما فيه وإن كان كفراً بواحا، أو كان عدلاً إسلامياً صِرفاً يدفعنا للمشاركة والأخذ بدواعيه ؛ فإن تقرير الحال واستقباح القبيح عند بروز شواهد المعرفة أمر لازم وواجب لا مناص منه، مهما عظم الإفصاح في الحرج .

ولقد تخلى رجالنا الأوائل[1] عن القرار ومصدر الحركة في سقوف المراحل السياسية؛ لأن الحاكمية قد انحرفت في علاقتها الخالصة بحقائق العدل الشرعي، وصارت مجرد غنيمة يحصل

---

(١) المقصود برجالنا الأوائل هو مدرسة آل البيت النبوي بدءً بقرار الإمام الحسن بن علي ونهاية بكسر السيف على يد الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي.

عليها الجاهل ورجل الجماعة المسنود بغيره من قبيلته أو عصبته أو ماله أو غير ذلك، وفي سبيل ذلك يبذل المال، و لمك الرجال، وترمل النساء، ويكذب في الأقوال، وتخدع الأجيال.

وأما اليوم فإننا في مسألة القرار والحاكمية -برغم تخلي أسلافنا عنها ورفضها بتاتاً- نرى إمكانيةَ الاستمرار في ذات الموقف، مع إيضاحاتٍ جديدةٍ تلزمنا بذلك، وتكشف كثيراً مما هنالك.

فالحاكمية والقرار اليوم لم يعد يتأتى بالمال وقتل الرجال فحسب.. بل وبإشـراف وبنظر القوى المحركة للأمور في العالم، وترشيحها المسبق لرجل القرار، وهـذه علـة جديدة تضاف إلى علة القرار في سير المراحل، وهي من أخطر العلل القادمة علينا من خارج دائرة الإسلام.

وهذه وحدها تكفي لمعرفة الفرق بين أسباب رفضنا المشاركةَ الفعليةَ كمدرسـة في مصدر الحركة، وبين ما سبق أن اختاره سلفنا الصالح من موقف المدرسة ذا ا.

السقوف السياسية وأهمّيتها في الإسلام

من المقطوع به أن مسألة الحكم في الإسلام مسألة هامة وضرورية ، و ـا ينتصـر الحق وتسود أحكامه ، وبانعدامه تنعدم الكينونة الشرعية في الحياة ، والحكـم مـن وجهة نظر الإسلام قرار شرعي مرجح لما اختلف أو اتفق عليه.

وهو – أي الحكم – أداة التنفيذ لمراد الله في العباد من صلاح أمر دينهم ودنيـاهم، ويجمع الإسلام بين طرفي «الحكم والعلم» في بوتقة واحدة ، لا انفكاك لأحدهما عن الأخرى ، حيث يكون الحكم مصدر تنفيذ القرار ، والعلم مصدر صياغته.

وقد يجتمع التنفيذ والصياغة في ذات واحدة كما هو على عهد صدر الإسـلام؛ وقـد يفترقان في ذوات ، والعلة الخطيرة أن يفصل بينهما أو يعزل أحدهما عن الآخر ، وهو مـا يسمى **بفصل الدين عن الدولة** ، وكان هذا جزءا من الطـاغوت ، وكـان ذلـك في عصور سبقت كما في الحديث الشريف «كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم». ومثلـه فصل الدولة عن الدين ، وهو لون آخر بصورة أخرى.

وكلا المصدرين في الإسلام كمصدر قرار محكومان وموجهان بالثوابت الشـرعية، لا مجال للعقل البشري في وظائفهما الأساسية وأن احكم بينهم بما أنـزل الله واحـذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنـزل الله إليك [المائدة: ٤٩] ومن لم يحكم بمـا أنـزل الله فأولئك هم الفاسقون [المائـدة:٤٧] وفي آية أخرى فأولئك هم الكافرون [المائـدة: ٤٤] وأخرى فأولئك هم الظالمون [المائدة:٤٥].

وإذا ما ثبت التوافق والتلازم بين هذين المعادلين جاءت بعد ذلك مسألة الاجتهاد ومسألة التوسعة على الحكام في الأحكام ومسائل الاحتكام. فالحاجة والمصلحة اللازمـة وتطـور

الوسائل مسألة يراعى فيها اختلاف أحوال الزمان من خلال فهم النصوص.

كتب ابن القيم في كتابه «الطرق الحُكْمِية» عن ابن عقيل: السياسة ما كان فعلا يكـون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد؛ وإن لم يضعه الرسول ولا نـزل به وحي.

ومن قال : لا سياسة إلا بما نطق به الشرع ؛ فقد غَلِط وغلّط الصحابة ، فقد جرى من الخلفاء الراشدين ما لا يجحده عالم بالسيرة ، وكفى تحريق علي للزنادقة وتحريـق عثمان للمصاحف ونفي عمر نصر بن حجاج. اهـ[1].

وفي بحثنا هذا لسنا بصدد المسألة الفرعية –وهي الاجتهاد في فهم النص- وإنما نحن بصدد السقف ذاته.. **موقع القرار** ، حيث إن **الاستعمار الأوروبي** لما امتلـك قـرار الدول الإسلامية والعربية ترك لها مسألة الاحتكام فيما دون ذلك، ولم يتـدخل إلا في قضايا نادرة جدا ، وإذا ما تدخل جعل له ذريعة من فتوى المسلمين أنفسهم .

وأدت المنظمات الدولية دورا هاما في احتضان المناقشـات العلميـة ذات الصـلة بالتشريع لا القرار السياسي. وفي لاهاي سنة ١٩٤٨ م انعقد مؤتمر المحامين الـدولي الذي اشتركت فيه ثلاث وخمسون دولة من أنحاء العالم أصدر فيه المجتمعـون قـرارا يقول: نظرا لما في التشريع الإسلامي من مرونة وما له من شأن هام يجب على جمعيـة المحامين الدولية أن تتبنى الدراسة المقارنة لهذا التشريع وتشجع عليها[2].

---

(١) « السياسة الشرعية » لعبدالوهاب خلاف.

(٢) « شريعة الإسلام » ص١٠٠ للقرضاوي ، ومثل ذلك ما تفعله بعض البنوك الربوية ، حيث تجمع العلماء لإصدار فتاوى حلّية التعامل ببعض المعاملات ذات العلاقة بالجانب الربوي من جانب بعيد ، فيقوم العلماء باستخراج الحيل الفقهية وحياكة الفتاوى الشرعية لتمرير هـذه

وحقا.. إن التشريع الإسلامي صرح شامخ ، وكما أن له شموخه ، فإن القرار الذي ينفذه أكثر شموخا وأقوى عظمة ؛ «لأن الله ينـزع بالسلطان ما لا ينـزع بالقرآن» كما ورد في الأثر، يا أيها الذين آمنوا ادخلُوا في السلم كَافةً ولا تتبِعوا خطُـواتِ الشيطانِ إنه لَكُم عدو مبين [البقرة: ٢٠٨] .

فالدخول في السلم هو امتلاك القرارين : الحكم والعلم ، والتفريق بينهما خطوات الشيطان وفساد الحياة .

ومشكلتنا منذ القدم لا تكمن في نصوص الشريعة ، أو ما يقوله المغرضـون عـن عجزها عن مجاراة الحياة ، وإنما في أداة تنفيذها.

فالشريعة منهج فرض نفسه بلا نـزاعٍ وخرج منتصراً على كل أطروحة ومشروع محلي أو عالمي ؛ ولكن علة الأمر في رجل القرار ، وفي القرار ذاته ، وهـو موضـوع بحثنا ، وموضوع تحليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ، كلما نقضت عروة تمسك الناس بالتي تليها ، أولهن نقضاً الحكم..» .

فالحكم في هذه الإشارة مصدر الإشكال ، ويقصد به كما سبق: **مصدر القرار**.

الشبهات ، بينما القرار الفاعل في الاقتصاد هو الحرام الصرف ومن ورائه.

القرار السياسي وخطره في الواقع

قال صلى الله عليه وآله وسلم: « لتنقَضن عرى الإسلام عروة عروة، كُلما نقِضت عروةٌ تمسك الناس بالتي تِليها . أولُهن نقضاً الحُكم، وآخرهن الصلاة، ورب مصل لا أمانةَ لَه» .

إنّ حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرر واقعاً لابد أن يكـون، وقـد كان.. ومِن متابعة هذه الكينونة نجدد الإشراقة النبوية لأهل عصرنا ممن يعنيهم معـنى الاقتداء والاهتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنكشف لهم سر الحـديث « لتنقَضن عرى الإسلام... أولهن نقضاً الحكم.. » .

و« الحكم » هو ما سميناه في بحثنا بـ « السقف السياسي » ، وهو الهَـوس الـذي ولعت به قوى الشر في العالم، والسقف السياسي هو **مركز القرار** ومصدر الحركـة، وله في الإسلام مكانةٌ عظيمةٌ ومركز هام جسيم، ويشدد القرآن وكذا السـنة علـى طاعة حامل القرار تشديداً يبرز أهمية الموقع ومكانته في حياة الأمة. ولعل أخطر قضيةٍ واجهت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله إلى عالم ربه هـي مسألة القرار، وسر الحركة، ومن يتسلمها ؟

وبرغم التوفيق الناجح الذي خرجت به السقيفة لتضع الأزِمة في يد الصديق رضي الله عنه؛ برغم ذلك فقد بقيت في كثيرٍ من النفوس تحفظات وتشوشات. ولم يمر عـام أو عامان إلا وتحولت مسألةُ القرار لدى جماعاتٍ معينةٍ هاجساً وشغلاً، حتى نضج الأمـر وتفرع إلى صراعاتٍ دمويةٍ على عهد الخليفة الثالث والرابع.. ولا تسل عما جرى بعد ذلك فالباب قد انكسر، والفتنة قد استيقظت، واستطمع في مصدر الحركة كـل ذي

طموح مشروع وغير مشروع. ولأن ملاحقةَ الأحداث الجارية في مصدر الحركة علــى عهد صدر الإسلام ليست موضوعنا هنا، فلابد أن نخرج منها إلى ما نحن بصدده.

والذي نحن بصدده مسألة الطامعين في امتلاك القرار وأبعــاد طموحــا م وآثــار امتلاكهم، فالخلفاء الأربعة - ويلحقهم الخليفة الخامس - كان القرار وامتلاكــه لا يعد رغبة ولا أمنية ولا مطلباً ذاتياً في حيا م اليومية ؛ لأن سر وجــودهم في الحيــاة كان الصدق مع الله وخدمة الدين والمنافحة عنه. وأما غيرهم -من أصحاب المطــامع والمطامح- فكان الحكم والقرار ومصدر الحركة أمنيةَ العمر ورغبة الــذات وأســاس المراهنة بالدين كله، وتمثلها الحيل والشعارات والمخادعات المتنوعة التي عرفها جيــل الصدر الأول على لسان الطامعين، مما لا يقبله الدين ولا تدعو إليه سلامة الإســلام، ومنها موقف قتلة عثمان رضي الله عنه، وموقف قتلة علي رضي الله .

كل هذا يميز الفرق الشاسع في مسألة « رجل القرار » في الإسلام الحــق، ورجــل القرار الناقض للعرى. وأما الإسلام ذاته فدِين يستظل به الجميع، ويخدمــه الجميــع، ويستفيد منه الجميع، وربما أكل به وبمبادئه الكثير، ولا أقول: الجميع.

والعلة في المسلم الطامع في القرار تكمن في تجاوزه آداب العلاقة الصرفة بالله فيمــا أنــزله من القواعد، وتمسكه بالإسلام ونصوصه لتحقيق طموحاته ورغباتــه تحــت سقف سياسي متين، ومن هنا تنشأ علة الصراع بين هذا وذاك، أو قل: بين صــاحب الحق في القرار وبين الطامع، والناس في الغالب لا يمتلكون القول الفصل في التعــرف على صاحب الحق إذا التبس بالباطل من داخل الخيمة الإسلامية إلا ببرهان من الله.

فعبدالله بن أُبي على عهد صدر الإسلام كان يطمح في امتلاك القرار، وكــان يحلــم بمصدر الحركة، فلما جاء الإسلام ممثلاً برسول الله صلى الله عليه وآلــه وســلم شــرق

عبدالله بن أبي بريقِهِ وأُسقط في يده، ولم يجد بداً أمام إشراق الحق من الانطـواء تحـت مظلته ؛ ولكن ليس للاتباع، وإنما للانتفاع.. وهذا نوع من أنواع الأمراض التي تعتـري رجل القرار الطامح الطامع .

ولم يقف عبدالله بن أُبي مكتوف الأيدي أمام رسول الله، بل رأى أن الإسـلام في نصوصه ودعوته يخدم طموحاته، فبنى مسجد الضرار، وكان بالإمكـان أن يكـون مركزاً خطيراً في المدينة .

وهذا ما يسمى في **حكم العصر** بالمعارضة، والمعارضةُ ضـرب القـرار بـالقرار، وإضعاف مصدر الحركة بحركةٍ مثلها. ومشروعية القرار على عهد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم محجوجة بالوحي وقائمةٌ به؛ ولهذا نـزل القرآن بالقول الفصل.

وفي هذا الباب نماذج عديدةٌ تبرز خطر الطموح في امتلاكِ القرار، وعبادةِ مصـدر الحركة، فعبدالله بن أبي لم يتراجع في إسلاميته الكاذبة عن تشويه مصدر القرار المسلم بشتى الأساليب والحيل والشعارات، حتى توج هذه المطامع بتأثيرات خطيرة على بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. يوم تولى **قضيةَ الإفـك** وروج لهـا، وكـان طموحه ينصب على مسألة إضعاف شخصية صاحب القرار ليتمكن من الامتلاك أو من المشاركة.

ويشبه هذا ما تتولاّه اليوم -في صورٍ مختلفةٍ وفرقٍ شاسعٍ- صحافةُ الإعلامِ لتشـويهِ حاكمٍ أو ترشيح ظالم.

ومن هذا النموذج الطامح في القرار ما فعله مسيلمةُ الكذاب مع رسول الله صـلى الله عليه وآله وسلم، حيث بدأ أمره بالإسلام والانطواء فيه، ثم بالمحادثة مع رسول الله صلى الله عليه وآله سلم حول قضية المشاركة في القرار ومصدر الحركة.. ثم كشـف

القناع وادعاء النبوة.. وهذا لونٌ خطير من التمثيل المسرحي، حيث اهتـدى العقـل النجدي إلى مصدر التأثير في القرار، ورأى أن الصفاتِ البشريةَ متشا ةٌ، ولا يمكن أن يجد من خلالها منفذاً يمتلك به القرار. إذن فمحمد يمتلك مصـدر التـرجيح للقـرار بالوحي.. إذن فهنا مصدر الكسب للمعركة .. فادعى النبوة.. ونحت لـه قرآنـاً.. وجاء لأغبياء قومه بالمعجزات الصناعية، فآمنوا به وجعلوه رجلَ قرارٍ وكفروا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ولم تنته المعركة بين مسيلمة ورسول الله **داخل الخيمة الإسلامية** حتى اليـوم؛ لأن مسيلمة الكذاب أعلنها صريحةً أمام رسول الله في المدينة وقال: **لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً** ، وهذا تجييش خطير في سبيل إسقاط القرار من يد صاحبه، وكـان الأمـر كذلك لولا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رد عليه بقولـه: ﴿إِنَّ الأَرضَ لله يورِثُها من يشآءُ مِن عِبادِه﴾ [الأعراف:٢٨] ، وهذا قيس بن شماسٍ يخطُب عني»[1] .

فظل العالم يشهد الأمرين: تجييش الكفر والنفاق ضد الرسول صلى الله عليه وآلـه وسلم وضد مصدرِ قراره ضمن الخيمة الإسلامية من جهـة، ومنافحـة المسـلمين الصادقين عن ذات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن القرار الإسلامي داخل الخيمة ذا ا من جهة أخرى .

---

(١) هو قيس بن شماس الأنصاري رضي الله عنه، كان صاحب رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم عند دخوله على مسيلمة الكذاب عند مجيئه من نجد إلى المدينة ونـزوله عنـد كـبير المنافقين عبدالله بن أبي وتأخره عن مقابلة رسول الله، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم بذاته إلى منـزل ابن أبي ومعه قيس بن شماس، الذي بقي اسمه رمزا علـى المدافعـة البرهانية عن الإسلام إلى قيام الساعة.

إن كل هذا يعود إلى قضية القرار، وحب امتلاكه، والتضحية بثوابت الحق، ونزعه من أهله، من أجل امتلاك مصدر الحركة وأطماح النفوس.

لقد عرف العالم الإسلامي منذ تأسيس دولته الأولى سقوفاً سياسيةً كثيرة.. منها سقوف في الشمس تحكم وتنفذ، ومنها سقوف في الظل تخادع وتخطط، وبين الفينة والفينة يبرز لنا الواقع في مواقع معينةٍ ما تنطوي عليه مسألة السياسة من أمانة أو خيانة.

ولأن السياسة تختلف عن القرار ؛ فلابد أن نتفهم خطر السياسة على القرار في الواقع، ونتفهم علاقة القرار بالسياسة في الإسلام.

إن القرار هو مصدر الحكم في أي سياسةٍ كانت، وأما السياسةُ فهي مصدر التقنين للحكم والاحتكام، وهي نماذج وأنواع.

وأما في الإسلام فالقرار هو الحكم الأعلى لتنفيذ أمر الله ولو كان صاحبه عبداً حبشياً، والسياسة أسلوب التنفيذ للتشريع وأحكامه.

ولما كان القرار في عهد صدر الإسلام بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فالسياسة كانت تمثل وجه القبول لكل ما يختاره صلى الله عليه وآله وسلم من تصرفات وقرارات سلماً وحرباً ؛ ولكن الظل الساكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يسلم من سياسة مناوئيه رغم عدم امتلاكها للقرار.

وبرزت مثل هذه السياسة في معركة هوازن، وأبرزت معها مفاهيم عالميةَ الامتداد والتصور.. قَسم رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم، وهي مسؤوليةٌ، فقام أحدهم -من أصحاب سياسة الظل- وقال: إن هذه قِسمةٌ ما أُريد بها وجه الله.

والرجل المتكلم لم يقف عند حد الانتقاد للقسمة عقلاً، بل تحول إلى الحكم الشرعي، وهذه صورةٌ من صور التعدي على القرار الروحي.

قسمةٌ ما أريد ا وجه الله !!..

ونافح النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمام هذا الادعاء عن الحق الـذي يمتلكـه.. «ويحك.. من يعدلُ إذا لم أعدِلْ» ..

وتتنوع الروايات في سرد القضية.. وفي إحداها يهب الفاروق لقطع رأس الرجـل، فيقــول صــلى الله عليــه وآلــه وســلم: «لا، حــتى لا يقــول النــاس: إن محمداً يقتل أصحابه »، وفي رواية: «إنّ من ورائه رجالاً» ..

إذن فهناك مؤامرات في الظل ضد القرار الحاكم ؛ ولكن رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم لا يعنيه إبرازها ولا إظهارها.. وإنما الإشارة إليها..

إن هذه النماذج وغيرها تبرز لنا بيقين أن مسألةَ **امتلاك القرار** مسألةٌ خطيرةٌ، ومنها و ـا تنكشف حقائق الأمر الذي دمر الإنسان المسلم.. وبانعدامها وتسلط الغير عليها وتنـاوش الطامعين لها تبرز أيضاً مجريات علاماتِ الساعة، كالشمس في رابعة النهار.

ولْنقِف عندها فقط.. دون الحاجة لكثرة الاستدلالات عن الحاكمية وجدار ا عند فلان أو لأهل فلان أو لدعاة الشورى أو للملَكِية أو الديمقراطية أو الحزبية التعددية أو الفردية أو غير ذلك.. فالجميع من داخل هذا الضابط المسمى **بشرعية القرار** يبرزون الحق ويؤيدونه، أو يستغلون موقعه فيستثمرونه.

مفترق الطرق

هناك في عالمنا الإسلامي عبر مسيرته الطويلة منعطفات خطيرةٌ وخطـيرةٌ جـداً.. وخاصة فيما يتعلق بمسألة القرار.. ومصدر الحركة..

وقد لفت النبي صلى الله عليه وآله وسلم النظر إليها في أكثر من إشارة[1] .

وبرغم أننا هنا لن نقف عند تحولات القرار من خلافةٍ إلى مِلْكٍ عضوضٍ إلى غـير ذلك؛ لكننا لابد أن ننوه إلى أن هذا التحول كان لـه دور فاعـلٌ في الانتكاسـات المتلاحقة، فالذين طمعوا في السيطرة على مصدر الحركة من رجال الصدر الأول بعد الخلفاء الراشدين، مهدوا لانحراف مركز القرار، وشجعوا الطـامعين علـى سـوء استخدام النصوص لمصالحهم، و يأت جيوش المصالح وعساكر المغانم والعصـبيات، وسار الجميع بنقائصهم ونقائضهم إلى **مفترق الطرق** المؤدي إلى الانـزلاق.

و**مفترق الطرق** هو ما نحن بصدده، فالذين رفضوا القرار من صالحي الأمة واعتزلوا مصدر الحركة فيه؛ هم الرجال الذين ظلوا يقفون موقف قيس بن شماس بعد رسـول الله صلى صلى الله عليه وآله وسلم ينافحون عنه ويقيمون قواعد شرعته ويستثمرون حصاد دعوته؛ ولكن بين الناس، وليس في مصدر القرار ولا مركزه .

وفيهم يقول المصطفى صلى الله عليه وآلـه وسـلم : « كلمـا نقِضـت عـروةٌ -أي: كلما دخل النقض من جهة الحاكمية- تمسك الناس بالتي تِليها » .

---

(١) أشار صلى الله عليه وآله وسلم إلى أُغَيلمةٍ من قريش يكون فساد الأمر على أيديهم، وكان أبوهريرة يقول: اللهم لا تبلغني عام الستين.

والناس هم الشعوب، والشعوب ضحية الرموز الحاكمة في كل مرحلة وتاريخ، وفي علية الناس يأتي علماء الدين الثابتين وكثير من آل البيت النبوي، أما علماء الـنقض فموقعهم في هذه المراحل موقع أصحاب القرار من الحكام ؛ لأن القرار المنحـرف لا ينجح في نقض العرى إلا بدعم من رجال العلم.. فأول عروة من عـرى الإسـلام تنقض هي الحكم، ولها رجالها في دائرة العلم، وهم علماء السلطة.

وأما علماء الإسلام القائمين في دائرة الشعوب فيعيشون تحت الأذى والألم محافظةً علـى ما بقي من العرى. ومن هنا حصل الانفصام بين علماء الشعوب وعلمـاء السـلطة، تبعـاً للفصل بين الدين والدولة. ويأتي في أول قائمة علماء الشعوب أصحاب المذاهب الاربعـة.. أبوحنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وهذا هو سر انتشار مذاهبهم في العالم . فقد انتشـرت مذاهبهم دون الحاجة للسلطة، وإن كان بعض أهل السلطان قد تبنى بعض المذاهب.

وأما علماء السلطة.. فكان لهم دور خطير عبر مراحل النقض للعرى.. من داخـل مركز القرار ومصدر الحركة العليا.. سواءٌ علماءُ سـلطة الدولـة ذاتهـا أم علمـاءُ الجماعات والتيارات، وهم الذين أخرسوا الألسنة وحملوا السيوف وقطعوا الرقاب في سبيل قبول الناس لآرائهم وعودةٌ إلى تصفح تاريخ التقلبـات السياسـية في الواقـع الإسلامي المتمرحل تقرأ العجب العجاب.

ونحن هنا لا نعمم الحكم السلبي على كافة الجماعات والدول ؛ ولكنا نضع الحكـم علـى الغالبية، وإذا ما أردنا التحقق في نفي الحكم السلبي عن البعض ؛ فإنا لا نتعدى بعض الأفراد من المخلصين الصادقين الذين وقعوا في بعض هذه التيارات والجماعات والدول لسبب أو لآخر.

وهذا كله لا يتجاوز السير نحو **مفترق الطرق** الذي أشرنا إليه.

أما **مفترق الطرق** فهو عصر آخر، وثوابته وأسسه وأهدافُه فمن نوع آخر، ويـبدأ

هذا العصر بمرحلةٍ خطيرةٍ في قرار السقوف السياسية في العالم الإسلامي.

إن الأمة الإسلامية برغم ما اعتراها من التمزق والضعف والنـزاع الداخلي والانقسامات ؛ فإ ا لم تصب في صلب عقيد ا وسياد ا كما أُصيبت بعد «تقسيم تركة الرجل المـريض» كما عبرت عنه القوى الاستعمارية.. أو ما يسمى **سقوط قرار دولة الخلافة** في **تركيا**[1].

إن هذه المرحلة مرحلةٌ خطيرة جداً في **تاريخ** المسيرة **الإسلامية كلها، وعنـدها تقف التأملات والتعللات، وخاصة** في **مسألة القرار ومصدر الحركـة** في **الدولـة.** فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في قراره السياسي قد أخبر عن النقض للعرى كلهـا، والحكم أولُ عروةٍ تنقض.. وصار النقض قاعدةً أساسيةً عند التحولات.. فإذا ما أُريد أن ينقض نظام بكافة قواعده وعاداته وتقاليده فليبدأ بالحكم.. وبنقض الحكم يسري النقض إلى كل شيء في الحياة.

وهذا ما فَعلَته القوى الاستعماريةُ في العالم.. وهذا ما عبر عن حصوله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في الأمة.. **عند تداعي الأمم** عليها في قوله صلى الله عليه وآله وسـلم الله عليه وآله وسلم: «يوشِك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأَكَلَـةُ علـى قصـعتها».. فمركز القرار هو مركز التحول.

والأمة الإسلامية **بقرارها السياسي** كانت قائمةً بذا ا أمام قوى العالم كلـه حـتى سقوط دولة الخلافة وقيام الدولة العلمانية، وبدء حركة الاستعمار في العالم.

وهذه هي مرحلة الخطر.. ومرحلة التحول.. ومرحلة اللعب بالديانة.. ومرحلة الغثائية..

ومن مقتضيات العلم الضروري الواجب أن نتعرف على هـذا المنعطـف الخطـير

(١) وبمعنى أدق: زوال السقف السياسي العالمي لقرار الدولة الإسلامية.

والمفترق المدمر.

لقد انخدع الكثير من الناس بقضية الإسلام كدعوةٍ وتجديدٍ ومنهجٍ في واقعنا المعاصر، بـل وانخرط العشرات من العلماء والباحثين في مؤسسات التعليم والتربية والبحـوث يفسـرون التاريخ ومراحلَ التحولات من وجهاتِ نظرٍ محدودةٍ وقاصرةٍ، حتى صارت مدارس النقض الاستثماري التي صنعها الفتح الاستعماري تعالجُ مسائلَ التدينِ والدين والعقيدة من منظـورِ الغثاءِ المبرمجِ، وحتى صار الشيوعيون الملحدون ينوهون –كذباً- باشتراكية الإمـام علـي وأبي ذر، ويلعنون -افتراءً- أرستقراطيةَ أبي بكر وعمر.

وحتى صار الدارس والباحث الإسلامي يتخرج من جامعات الغرب الاستشراقية.. يحمل أعلى درجات المعرفة العلمية في الإسلام.. من داخل أروقة الكليات الكـافرة العلمانيـة.. وحتى صار آل البيت النبوي في قواميس المؤسسات التعليمية أصناماً وطواغيت.

وبلغ الخطر إلى ذُروته عندما بدأت مؤسسات الأنظمة تسعى لوضع سياسة التقارب بين الأديان.. على أساسٍ من تصحيح أخطاء التاريخ نحو النصـرانية واليهوديـة، في الوقت الذي تبرمج فيه مؤسسات أخرى لنقض العرى الإيمانية بين أهل الملة الإسلامية الواحدة، وتطبع آلاف الرسائل وأطنان النشرات لتعميق الصراع بين المسلم الصـوفي والسلفي والحزبي والحكومي وهلم جرا.

إن قضيةَ القرار هي مسألتنا المصيرية.. والعلةُ هي فقدانُ القرار الإسلامي في الأمـة، وسريان الجهل الإعلامي من القاعدة إلى القمة، كثمرةٍ من ثمرات امتلاك العدو مركز القرار.. في الحكم، ثم في العلم، ثم في التربية والتعليم، ثم في الاقتصاد، ثم في الإعلام.. وحتى في الموضة واللباس والكرة والهوايات.

إذن.. فليس للإسلام في المسلمين قرار.. ولهذا ليس لهم مظهر استقرار..

أشكال السقوف السياسية المتمرحلة

ظهر في ا تمع العربي والإسلامي منذ الحرب العالميــة الأولى تحــولات في الأرض وحدودها، وفي السياسة وبنودها، وفي الحكم ورجاله، وفي المعرفة وأسبا ا، والحرب العالمية الأولى حرب اتسمت بالعالمية لأ ا كانت ثمرةً لسياسة توزيع العالم إلى مراكــز قوى تستثمرها العالمية الكافرة .

والعالميةُ الكافرةُ لا تقيم حرباً ولا تطفئها إلا بعد دراسةٍ وتمحيصٍ، كمــا أ ــا لا تضحي بأبنائها ولا ثروا ا إلا إذا عرفت مقدار المكاسب المادية الــتي تجنيهــا مــن المخاطرة بفلذات الأكباد .

والظروف العالمية في مرحلة الحرب العالمية كانت ناضجةً كل النضوج لمصــلحة العالميــة الكافرة، وخاصة أن دولة القرار الإسلامي كانت في وضع لا تحسد عليــه مــن الضــعف والتفكك، والدول العربية بمجموعها كانت فريسةً سائغةً للسياسات الغربيــة المخادعــة، إضافة إلى الفقر والجوع الذي حل ا مع ضعف الدولة العثمانية .

وقد نشطت سياسة المعاهدات والمؤامرات بين دول الغرب وحكام المسلمين في الجزيرة والخليج، وبرز شبح الحرب يهدد العالم، وشعر الحكام العرب با يار الدولة العلية وضعفها البارز أمام سياسة الغرب، فخذلوها وأسقطوا بأيديهم علاقةَ بلدا م بــالقرار الإســلامي العالمي . وأقاموا معاهدات الصداقة والحماية والدفاع المشترك مع دول الكفر، رغبــةً في تحقيق **المصالح الذاتية**، بدلاً عن **وحدة قرار الأمة الإسلامية**..

وكان هذا في حد ذاته قراراً مقيتاً، ومقتلاً مميتاً، ولم تألُ الدول الاستعمارية جهدها في بذل الوعود وكتابة العهود، لتحقيق الحلم العربي القاصــر، حــتى اســتطاعت أن

تستميل إلى جانبها مركز القرار في الحجاز والشام والعراق.

وقامت الحرب العالمية الأولى لإعادة توزيع الخريطة العالمية من جديد.. فكان ما كان.. وا ار البنيانُ الإسلامي المتمثل في دولة الخلافة.. لتصبح تركيا بعد الحرب دولةً علمانيةً تلتزم شروطَ الغرب، وتنفذ رغبات اليهود، الذين استفادوا من ظروف الحرب العالمية، وأعلنوا دولتهم الجديدة في قلب العالم الإسلامي والعربي.. دولة إسرائيل.. بمساعدة القوى الاستعمارية ذا ا.

وبمقدار وفاء الدول الغربية لوعدها مع اليهود فقد نقَضتِ العهد والوعد الذي أخذته للعرب في الاستقلال الذاتي، وبدأت رحلة الاستثمار من مرحلة التحول الجذري في الواقع الإسلامي كله، وضعف الحكام المسلمون أن يرتقوا آنذاك إلى مستوى المسؤولية ؛ لما غلب عليهم من الضعف والجهل، فوقعوا معاهداتِ الذلة مقابلَ الانتفاع بعرضٍ من الدنيا قليل.

وانتفع آخرون بمجريات الأحداث فتحالفوا مع الكافر ليقيمهم حكاماً وسلاطين على مساحاتٍ من الأرض المستعمرة.

واستطمع آخرونَ من بداوة المسلمين ورسموا مع الكافر خريطةَ الغزو المسلح في الجزيرة، حيث لا تصل يد الكافر إلا م، مقابلَ اقتسامِ المصالح وثمراتِ الثروات، وتأمين سياسة الاستراتيجيات، وأُعيد رسم السقوف السياسية في الأوطان الممزقة لتؤدي دور التطبيع والقبول لسياسة الاستعمار الجديد.

وجاء شكل السقوف السياسية على النحو التالي:

١. تقسيم تركة الرجل المريض على مجموع الدول المشتركة في الحرب، لتستثمرها مادياً ومعنوياً، وتضعف أثَر الإسلام فيها.

٢. إعادة ترتيب السقف السياسي العالمي تحت منظور الدول المستفيدة من الحرب، وإقامة المحافل الدولية الضابطة لسير نشاط الدول المستعمرة في العالم، وتقسيم العالم إلى كتلتين: رأسمالية وشيوعية.

٣. إقامةُ سلطناتٍ ومشيخاتٍ ودويلاتٍ وولاياتٍ في البلاد الإسلامية والعربية ذاتِ حدودٍ جديدةٍ وموثقةٍ تحت سمع وبصر الاستعمار وحمايته.

٤. بناءُ مؤسساتٍ ثقافيةٍ وتعليميةٍ ذاتِ مناهج موجهةٍ تقطع طريق المسلم عن معرفة حقيقته العالمية وتربطه بعجلة الاستعمار والخدمات الدولية.

٥. غرس سياسة الصراع والتفرقة الدينية والقبلية في الساحة الإسلامية، ورعاية ذلك وحمايته وتموين روافده من خلال انقسامات السلطة.

٦. رسم سياسةُ الفصل بين سلطة الدولة وسلطة الدين لخدمة المصالح الاستعمارية، ثم الجمع بينهما لخدمة مصالح الأنظمة.

٧. تذويب كافة مواقع العلم والتعليم التقليدية ومنافستها بالمدرسة والثانوية والجامعة والبعثات.

٨. توسيع دائرة الخدمات النفعية، وتذويب الحرف المحلية والإنتاج الذاتي ضمن السوق الجديدة.

٩. فتح باب التوظيفات العسكرية والإدارية، ومنح القبائل ورؤساء العشائر المساعدات والأموال لنقض عرى العلاقات الاجتماعية المتوارثة.

١٠. تعميق دوائر الجهل والتخلف العلمي والشرعي ؛ لتنشأ العادات والتقاليد الشعبية، التي يجعلها الكافر وعملاؤه عنصر الضعف في المسلمين وتخلفهم، وتغيير أوضاعهم

الدينية بأخرى.

١١. رسم خرائط الثروات في الدويلات والسلطنات، وامتلاكها لمصلحة سياسة الاستعمار، و ب ما أمكن به، مع الإنعام بالمال والسلاح على رؤوس الحكم وساسة التطبيع، ورسم نظام الجنسية الإقليمية.

١٢. تجاوز الشريعة الإسلامية من خلال وضع القوانين والدساتير الداخلية المؤثرة على علاقة المسلمين تدريجيا، كالحجاب وإبداله بالسفور، والبيع بالربا، والولاء للكافر مقابل العداء بين المسلمين على الحدود المصطنعة، وإثارة النعرات القبلية والطائفية.

وكان لابد لهذا التحول من سقوفٍ تحميه ورموزٍ تبنيه وتنميه، وكانت هذه السقوف هي الوزارات والإدارات والمدارس ومكاتب الاستشارات التي فرغت العقل الإسلامي من محتواه، ليصبح طائعاً وديعاً للعمل في سوق العرض والطلب، يخدم الكافر، وينمي مشاريعه، من داخل المسجد والمدرسة، ومن داخلها أيضا يحارب أخاه ويدمر كيانه.

واستثمر الاستعمار المرحلةَ ولم يقف عندها، بل ظل يعمل جاهداً على استمرار التعمية و يئة السقوف المناسبة للنقض في المراحل اللاحقة.

إن الإسلام في سلوك المسلم المستسلم لا يضر الكافر ولا يعنيه، بل ربما استفاد الكافر من المسلم الملتزم أكثر من استفادته من المسلم المتمرد.

وهذا ما شهدته الناس في مراكز الاحتلال الغربي عندما كان الأوروبيون يحترمون المسلم الملتزم بصلاته وعبادته وصيامه، ويعاملونه معاملة حسنة في موقع عمله، ويشيدون به.

إن الأمر الذي يقض مضجع الكافر حقيقة الإسلام في المسلم، وإدراكاته الواعية

لخطر الولاء للكفر والكافرين، وكشفه لمواقع المسخ والنسخ التي يطبقهـا الكـافر في الواقع المسلم، وفضح الأقنعة الملونة التي يضعها على مواقع التربيـة والتعلـيم، وإدارة الأحوال الاجتماعية والإعلامية والثقافية.. تلك الأقنعة التي برز من تحتها جيل التفسخ والتفرنج، وجيل الرفض للدين، وجيل التشكيك في الإسلام وثوابته، وجيل الحاكمية الغثائية، وجيل الإعلامية الرخيصة والإحباط والاختلاط .

لقد فَرِغَ العدو الكافر من مهمته السياسية بعيد نجاحه في تقسـيم تركـة الرجـل المريض، واستطاع بكل ما يملك من دهاءٍ وحنكة وخبرة أن يبرمج أمـةً كاملـةً في أوطا ا على قبول برامجه الفكرية وسياسته القهرية.

وحتى أولئك الذين نادوا بالحريات والتحولات بعد ذلك ؛ كانوا في الغالب ينظرون لقضية الاستعمار من خلال السيطرة على الأرض والمقدرات المادية، دون الالتفـات للفكر والدين والمصير الروحي؛ إلا من رحم الله.

ولهذا استطاع المستعمر أن يرسم معهم وفيهم أسـلوب المسـاومة.. إلى جانـب المقاومة.. حتى هيأ م ومنهم من يعيد مبنى الاستعمار وخدمة مصالحه داخل أروقـة الأحرار، وضمن إدارات الثورات ضد الاستعمار.

لقد كان العدو حريصاً كل الحرص على مسألة السقوف السياسية، والسـيطرة عليهـا وتوجيهها وفق استراتيجيته العالمية، ولا يعنيه الأفراد والجماعات الـذين يسـتظلون ـذا السقف أو ذاك، بل لا يعنيه إيما م أو عدم إيما م بالقضية التي يقاتلون من أجلها.

فالإيمانُ لدى الكافر مسألةُ مزادٍ ترضخ لسوق العرض والطلب، ولهذا فإن الحمـاس الديني قد يخدم الكافر في كثير من الأحيان، وقد قبض علـى زمـام الأمـر المحـرك للجماعات والفئات، وعندما يفلت الأمر من يده ويبرز له شبح الخطر مـن داخـل

الحركات التحريرية -إسلاميةً أو إقليميةً أو قوميةً- يبذل كلما يمكن بذله في تفتيت هذا الحماس، من داخل الجيوب الإسلامية والاستسلامية، ولو بتشكيل جماعاتٍ مأجورةٍ من داخل المنطقة الملتهبة ذاتها؛ لتنازع المخلِصِين، وتفسد مسيرة عملهم، وهذا ما نشهده ونراه في كثير من بقاع الأرض الإسلامية.

إننا حتى اليوم والليلة في أمس الحاجة كمسلمين أن نخرج عن دائرة الخداع والانخداع؛ لنقرر ما يجب أن نفعله مع أنفسنا قبل غيرنا.

وقرارنا: هو معرفة الحقائق المرة التي أهملناها في معركتنا المعرفية مع عدونا التاريخي الكافر.. وليت الكافر أهمل هذه المسائل وعاملنا بالسطحية والسذاجة والصدفة..

لا.. إن الكافر كل يومٍ يطور من أساليب احتوائه ؛ لأنه مقتنع تماماً أن عدوه الحقيقي هو الإسلام.. وكل ما يساعد الإسلام على الحركة وامتلاك القرار يجب أن يزحزح عن الطريق..

أما نحن فلسنا مقتنعين جميعاً أن عدونا الحقيقي هو الكفر وأن كل ما ساعد العدو على الحركة وامتلاك القرار يجب أن يزحزح عن الطريق..

نحن غير ذلك.. نحن نعامل الكافر كسيدٍ في الحياة يملك قرار الغذاء والدواء والحياة والفناء، ونعامل بعضنا البعض بالبغضاء والحسد والوقيعة والاحتقار والمؤامرات والتربص والخداع وفقدان الثقة.. كل ذلك من أجل الدنيا.. نعم.. من أجل الدنيا.. وفيها يقول معلمنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم : « لست أخشى عليكم الشرك؛ ولكن أخشى عليكم الدنيا.. أن تبسطَ عليكم فتنافَسوها، فتهلكَكُم كما أهلكت من كان قبلكم » .

العالمية وهويتها الأساسية في الإسلام

ربما كان الحق مراً ؛ ولكن الذي هو أمر منه: التعبير عنه، والإعلان عن مرارته.

والحق في عصرنا وفي غير عصرنا سلعةٌ في سوق العرض والطلب، تتحقق للفرد والجماعة والنظام والأمة بقيمتها المطروحة في ساحة المزاد.. وقليلٌ من فهم الحق خالياً عن المساحيق والمكياج.. وقلت: القليل ؛ لأن هذا القَدر من الكم نادر جداً.. والغالبية العظمى من الناس هم الدافعون قيمةَ المواد المستهلكة في السوق.. يشترون ولا يمحصون أو يفحصون.. فالدعايات قادرةٌ على رسم الاختيار الشخصي والعالمي، بل ومهيئَةٌ لتسويق الرديء في معرض الجيد، وإسقاط الجيد ليباع في معرض الصنف الرديء.

ومن التجارة.. إلى الإدارة.. إلى الوزارة.. إلى السقوف المنهارة..

ولما كنا نحن – على ما نعلم – خير أُمةٍ أُخرجت للناس [آل عمران:١١٠] صار علينا أن لا ننجر جميعاً إلى هذا الأتون الملتهب ؛ لأن الحق سبحانه لا يقول إلا حقاً، ومن الحق الذي أراده في العالم كينونتنا العالمية، والعالمية منهج إسلامنا ورؤية نبينا عليه الصلاة والسلام.

وليست عالميتنا نظرنا في ثمرات العلم المعرفية وخدمتها في أوعية الأنظمة والمجتمعات المرذولة، وإنما عالميتنا تبدأ بمعرفة هويتنا الذاتية أمام غيرنا في العالم. ومن خلال موقعنا العالمي نضع أُسس وقواعد معرفتنا لديننا، ومعرفتنا لغيرنا على حسب ضوابط ملتنا.

والحاكميةُ جزءٌ من تركيبنا العالمي، بل هي السقف الضروري لحماية الهويات

والهوايات، وهي الغطاءُ الشرعي الجامع تحت ظله أشتات الرؤى ونماذج الأفكار، وهيمنةَ القوانين شرعيةً وغير شرعيةٍ.

والذين سكتوا من رجالنا[1] عن قضية الحكم والحاكمية ؛ إنما غرضهم عدم المزاحمة على القرار مع وجود الراغبين فيه من دائرة الأمة ذاتها، ومن هؤلاء من كسر السيف علناً كرمزٍ عالمي على إمكان التعايش السلمي مع كافة عناصر الاختلاف داخل الخيمة الإسلامية ومعالجة الأمور بالعلم والأخلاق.

وكان الأمر كذلك..

أما اليوم فمسألةٌ أخرى، ولابد من إثارتها لينطلق الجميع من رؤيةٍ ثابتةٍ ووضوح تام، وهذه الرؤية الثابتة لا تعني مطالبتنا بالعروج إلى سلم الحاكمية، أو البحث عنها، أو المشاركة فيها، وإنما تعني تجديد مفهوم التعايش السلمي مع أمة الإسلام كلها.. مقابل تحديد هوية كفر الكافر ومداخل سمومه في عالميتنا الإسلامية، وتحجيم وسائله، وكشف دسائسه، ومحاولة إقناع العديد من سماسرة المراحل كي يوقفوا حملات الإعلام المغرضة ضد بعضهم البعض، ويرتقوا إلى مستوى إسلامية الإسلام ؛ ليعيشوا مع إخوانهم المصلين في أمن وسلام.

ولا أدري.. أيتحقق ذلك ؟ أم هو حلم وزفرة قلبٍ بمدادِ قلم؟

وأعتقد أن تحقيق الأحلام ليس أمنيتنا، وإنما واجبنا الإفصاح والإبلاغ وبسط المسائل بكافة الوسائل.. والله غالب على أمره..

---

(١) المقصود برجالنا هو مدرسة آل البيت النبوي بدءً بقرار الإمام الحسن بن علي ونهاية بكسر السيف على يد الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي كما سبق.

انخداع الشعوب بالسقوف المنهارة

سبق وأن أشرنا إلى مفترق الطرق الخطير الذي حل بأمة الإسلام في مسألة القرار، وأن مصدر الحركة فيها قد تحول تحولاً جذرياً كما تنبأ بذلك صلى الله عليه وآله وسلم. وتحدد هذا الزمن بظهور مرحلة الغثاء منذ تقسيم تركة الرجل المريض وإسقاط الخلافة وتجزؤ الأوطان الإسلامية إلى دويلات ذات حدود جديدة، ومرسومة من قبل القوى العالمية.. السياسيةِ التي أفرزت عبر المراحل المتلاحقة صوراً متنوعةً من النظريات، والأفكار، والمشاريع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية، والتعليمية، والإعلامية، والثقافية، التي قادت الأمة إلى مشارف جحر الضب، المعبر عنه بحديثه صلى الله عليه وآله وسلم: « لتتبعن سنن من كان قَبلَكُم شِبراً بِشِبرٍ وذراعاً بذراعٍ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله.. اليهود والنصارى؟ قال: ومن؟ ».

إننا هنا لا ننفي وجود الشعائر الإسلامية في الأوطان الممزقة خلال مرحلة التقسيم وبعد إعادة تشكيل السقوف الجديدة بعد الحرب العالمية ؛ إذ إن العقليات السياسية في العالم الغربي لا تعنيها مسألة الشعائر بديهةً، ولا قضية المشاعر المقدسة، وإنما تعنيها مسألة القرار ومصدر الحركة وموقع التأثير. وبعد أن تحقق لها ذلك صارت تحرص كل الحرص على أن لا يعود القرار إلى أهله، ولا يمتلك المسلمون مصدر حركة فوقية في العالم، أما دون ذلك فلم يشتغل به المستعمرون إلا بعد نجاح استثمار الهيمنة وإحكام القبضة . وهذا ما تفسره الشروط العشرة التي وقعتها دول الغرب مع **مصطفى أتاتورك..** أول حاكمٍ علماني بعد الحرب في دار الخلافة.

وبمجرد النظر بعد هذا إلى خريطة الوطن العربي السياسية، ثم إلى سقوفها المصطنعة ومعاهداتها المريبة مع قوى الاستعمار العالمي، وما تبع ذلك من النشاط المحموم على

كافة المستويات ؛ ندرك مدى الانحدار الخطير الذي دخله العالم العربي والإسلامي منذ ذلك اليوم بدءاً بالأرض والإنسان والآثار والتاريخ[1] وكتابته والمحافظة عليه، و ايـةً بالعقيدة والدين والعلاقات الاجتماعية.

إن كثيرا من مسلمي هذه البلدان الممزقة لم يدركوا خطر المرحلـة ولا أبعادهـا، ولذلك كانوا على غاية في الابتهاج والسرور بالتدخل الاستعماري، وخاصة أنه كبح جماح كثيرٍ من القبائل الناهبة، ووطد عرى الأمن في العواصم، وألهى عناصر عديـدة بشيء من المال والسلاح.

لقد كان دور السقوف السياسية المختارة في المنطقة العربية والإسـلامية منـذ عصـر التحولات المشار إليها ؛ ترويض الإنسان العربي وغير العربي على قبول سياسـة التطبيـع الاستعماري، وإضعاف نـزعة العداء الفطري لدى المسلم ضد الكافر، وكان المواطنـون العرب في عدن يهتفون إبان الحرب العالمية بعد صلاة الجمعة «يا قوي يا عزيـز.. أهلـك الألمان وانصر الإنجليز.. » ؛ لأن الإنجليز كانوا يحكمون عدن.

وكان الكافر يرسم من خلال مخادعة هذه الرموز أبعاد سياسته المتنوعة، للاستفادة من كل منافذ وجوده.

وكانت المنطقة العربية والإسلامية خلال هذه التحولات تشهد الكثير مـن الأحـداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مجموع العالم المغلوب على أمره.

---

(١) كتب د. سعيد صالحية في كتابه « تغريب التراث » نقلا عن كتـاب « مكتبـة المتحـف البريطاني » قوله : إن المتحف البريطاني يأتي بعد الأسطول البريطاني . اهـ . أي: إن سياسة البحث عن المخطوطات والآثار وكشف مخبآت التراث تأتي مباشرة من حيث الأهمية بعـد مرحلة امتلاك الارض واستعمارها.

وحتى بعض السقوف الثورية التي شهد ا المنطقة العربية لم تخلُ من التخطيط العـالمي المبرمج، الذي شغل العالم مرحلة طويلة بالحرب الباردة بين معسكري الغرب والشرق.

وكانت السقوف المباشِرة لهذا الصراع تنفذُ بإدراكٍ وبغـير إدراك سياسـةَ العـدو المخادع، مضطرةً حيناً لإنجاح ما تحلم به من تحولاتٍ، ومحبطةً حيناً آخر لشـعورها بضعف الإنسان العربي وقوة التحولات العالمية غربيةً وشرقيةً.

وإذا ما أنصفنا القوى الثورية في عالمنا الإسلامي والعربي في حر ا المشروعة ضـد الاستعمار الكافر حتى انتزعت استقلالها المنشود ؛ فإننا لا نستطيع أن ننصف المراحل التي برزت بعد ذلك، وقد كشفت عن أصابع الخيانات داخل الخيمة الثورية، وهـي تعمل من خلال مواقع الحكم لإضعاف وبتر علاقة الأمة بدينها وشـرعتها القويمـة، متخذةً من الوعي الثوري والمنهج الشرقي أو التوليفي بديلاً حتميـاً لأمـة القـرآن والسنة.

إن مجموع السقوف السياسية في خريطة العالم العربي والإسلامي منذ عهد الغثـاء عمِلَت بإخلاصٍ وتفانٍ على تحديث الحياة العربية والإسـلامية، وإدخالهـا مرحلـة المعارف الحديثة والمصارف الربوية، وزجت بالإسلام ومفاهيمه في سـوق العـرض والطلب، حتى صار جزءاً لا يتجزأ من معروضاتِ الأسواق الفكريةِ، المتلونـةِ بلـون الإناءِ الذي تعرض فيه.

فالإسلام في منطقةٍ معينةٍ يختلف عن الإسلام في ما وراء حدودها، والعالم في القطر الإسلامي أو العربي المرتبط بعجلة الغرب يختلف عن العـالم أو المفكـر الغـربي أو الإسلامي المرتبط بعجلة الشرق.

ومؤسسات العلم في دولةٍ عربيةٍ معينةٍ تتناقض في كتابا ا ومناهجها وإعلامها مـع

الدولة العربية الأخرى.

وكلا الدولتين -أو قل: كتلة الدول المجزأة المتنازعة- تنطوي في حربها وسلمها واقتصادها وسياستها الخارجية -وحيناً الداخلية- بل وفي مصيرها المسلوب ؛ تنطوي لتأثير القوى العالمية المهيمنة.

وحتى القوانين المدنية والشرعية وجزء من سياسة التربية والإعلام والأفلام والأقلام ومستقبل الأجيال ؛ كلها مستقاةٌ أو جزؤها الأكبر من المحيط الغربي أو الشرقي المستعمِر أو المستثمر، وفي هذه الدول أو في أشدها التزاماً للدين -أو قل: برنامج التدين السياسي- ترى العجب العجاب.. جهاد.. واجتهاد.. وسعي دؤوب لمحاربة البدعة والشرك كما يسمى.. وتضييق على المسلم في طعامه، وشرابه، وقانون حياته، ومعيشته.. مقابل إطلاق الحريات للكافر والمستعمر المستثمر داخل الخيمة العربية والإسلامية ذاتها، بل وحسن معاملة وصدق مجاملة في كل مواقع الأخذ والعطاء، ومهادنة مع شرك اليهودي والنصراني والبوذي مهادنة تتيح للجميع القدرة على الإعمار، والمشاركة في البناء والاستثمار والعمالة أوسع مما يحظى به المسلم ذاته.

لقد خدع مسلمو هذه المراحل مراتٍ عديدةً وبألوانٍ متنوعةٍ، ولأنهم لا يملكون من الأمر شيئاً فقد ذاب غالبهم في هذه المراحل وتأقلموا مع أوضاعها، وصار لا يعنيهم أمر عزة الإسلام ولا الغيرة على ثوابته. بل صار المسلم المتأقلم يحافظ على الصلوات الخمس وهو يمارس خدمات البنوك الربوية ويتعامل بعائداتها. ويقوم التاجر المسلم ببناء المساجد وطبع المصاحف وإعادة تحقيق كتب السنة وتمويل خدمتها من مردود البنوك الربوية.. إنه انفصام بين ثوابت الإسلام وبين المسلم، ولا زال هذا الانفصام إلى اليوم والليلة، وفيه قال صلى الله عليه وآله وسلم: « ورب مصل لا أمانةَ له » .

السقوف السياسية المهيئة للنظام العالمي الموحد

شهد العالم الإسلامي منذ بداية مرحلة الغثاء ظهور معسكرين عـالميين، أحـدهما معسكر الرأسمالية، والآخر معسكر الشيوعية.

وقام مبدأُ المعسكرين على اقتسام الفكر الإنساني الاقتصادي، والزج بالعـالم في هـذا الأتون الملتهب، لينشأ بذلك ما يسمى بصراع الأضداد أو بالحرب الباردة.. تحت المبـدأ السياسي العالمي «فَرِق تسد»، فكانت دولٌ إسلاميةٌ وعربيةٌ في كفـة الرأسماليـة، ودولٌ إسلاميةٌ وعربيةٌ في كفة الاشتراكية، هذا من حيث المبادئ الاقتصادية.

أما من حيث التطبيق اليومي للدين في شعائره فمسكوت عنه، وعائد إلى اهتمـام الدولة ذا ا، وإلى الأيديولوجية التي ينطلق منها النظام.

وكانت أنظمةُ الدول الإسلامية والعربية مختلفةً في « **مسألة الإسلام** » **قـراراً وغايـةً ومصيراً ووحدةً**، ومتفقةً في « **مسألة الإسلام** » **شعائر وممارساتٍ شرعيةً متنوعة**.

ولهذا فإن سقوف السياسة المتأثرة بالعالم الغربي لم تشتغل بمحاربة الـدين والتـدين مباشرة، بل وجهت همها إلى جيل المسلمين وأبنائهم ليحملوا هم بناء الحيـاة الماديـة والاشتغال ا، وكان هذا وحده كفيلا على إضعاف مدلولات **التـدين المتكامـل** وخلخلة صفوف أتباعه.

فالشهادات العليا والوظائف الحكومية المرموقة كانت مطلباً عالياً في حياة جيل المدرسة الحديثة، بينما كسدت سوق التعرف على علوم الإسلام ودعوته؛ لانقطـاع رصـيدها المادي في الحياة، وانصراف عِلْيةِ القوم عنها إلى البعثات في الخـارج والتخصصـات في

الأكاديميات الإعلامية، فضعفت علاقة الكثير منهم بالدين سلوكاً وخلُقاً، ثم أدى ذلك إلى إهمال الشعائر والتساهل ا، وسرى الانفصام الكلي بين المسلم والإسلام.

أما في الأوطان التي حشرت تحت المظلة العالمية الشرقية فكانت أكثر جرأةً وانفصاماً عن الدين.. بل صار مهندسو هذه البلدان ومنظروها يعزونَ التخلف والتأخر الاجتماعي والاقتصادي للدين ذاتِه وفْق مرقوماتِ المنهج الشيوعي العالمي، وفيها صار الدين مة خطيرة في حياة المسلم المواطن فضلا عن العالم والمتعلم..

و ذه التهمة غزا الإلحاد والفساد دولاً إسلاميةً وعربيةً، وحول أجيالاً وبنى أرتالاً من عساكر الشهوات والرغبات ودمار الهويات، وأخرب الإنسان وهدم البنيان وأفسد المبصرين والعميان، وأهلك الحرث والنسل.

وليس سراً أن يقال في هذه العجالة: إن مناطق معينة في هذه الأوطان لم يمسها الفكر الشرقي، ولا المد العلماني الغربي فيما يتعلق بالديانة، وإنما دخل عليها الفساد من جوانب أخرى. ففي اليمن مثلا كانت سياسة الدول الغربية ترك النظام الإمامي دون مساس مباشر بتركيباته السياسية أو الاقتصادية مدة طويلة، ويكاد هذا النظام أن يكون الوحيد في العالم العربي الذي ظل محافظا على الولاء الصوري للخلافة الإسلامية حتى بعد سقوطها، وأوكل أمر تطبيعه وتطويعه إلى الجيران من دول المنطقة، وإلى القوى الاستعمارية ا اورة له في نظام عدن المحمية حتى قيام الثورة. وهذا لا يعني سلامة النظام أو السقوف السياسية من الهيمنة الكافرة، وإنما يعني كيفية الانفصام في تعامل الكافر مع دول المنطقة العربية والإسلامية لتنفيذ سياسة الاحتواء من بعيد.

وفي قلب الجزيرة العربية عالج الغرب منطقة القرآن والسنة بأخطر أسلوب وأذكى وسيلة، فظاهر الحركة في هذه المنطقة كان صراعا بين بدو المنطقة وحكام الحجاز وما حولها

من المناطق، وخاصة بعد أن ضعف أثر دولة الخلافة وبدأت قبائل المنطقة العربيـة في الاستيلاء على العواصم وتكوين كيانا ا الذاتية، أما في حقيقة الأمر فهو دور جديـد لإنشاء سقف سياسي في أخطر مناطق العالم وأكثرها حساسية، ولهذا السبب لعـب الغرب دورين مختلفين:

الأول: عزل حكام الحجاز وما حولها عن دولة تركيا المنهارة بمعاهدات الصـداقة والوعود بالوحدة العربية.

الثاني: دعم الحركة الدينية السياسية في منطقة نجد وما حولها ماديـاً لتجتـاح المنطقـة بكاملها[1] ، وتؤسس الكيان العربي الإسلامي القائم على قواعد الربط بين سلطة الدولـة العربية وسلطة الدين المسيس كبديل حتمي لكافة النماذج المذهبية والطائفية، مع ترسـيم الحدود القريبة الجديدة ذات المسمى الجديد، والمنطوي تحت إدارة واعتراف مؤسسـات النظام العالمي الجديد، ولهذا السبب كشف الغرب قناعه، ونكث وعـوده الـتي قطعهـا للحكام العرب بعيد الحرب العالمية، وتنصل عن قيام الدولة العربية الواحدة؛ ليجعل الأمـر كياناتٍ متعددةَ الأفكار والرؤى وحدوداً سياسيةً ترضخ لتحكيم الأمم المتحدة، ورسـخ النظام العربي الملكي في قلب الجزيرة. وأغدق عليه المال والسلاح، وفتح أبواب الثـروات التي لم يكن العرب على علم ا ولا علم بمواقعها.

كما صنع الكيانَ الإسرائيلي في جانب آخر منها، وبدأت المنطقة مـن جديـد معركـة

---

(١) سياسة الغرب في العالم الإسلامي لا يعنيها مذهب دون مذهبٍ، وإنما يعنها تأييد السـلطة لتشق عصا ا تمع وتقلب أوضاعه، فالمسلم عدو للكافر، سواء كان وهابيـاً أو صـوفياً أو حزبياً أو غير ذلك ؛ لكن سقوف الكفر تؤيد وتدعم الصوفي إذا تجرد لمنازعـة السـلفي، والعكس كذلك، وهذا محور الإشكال في الصراع المبرمج.

التطبيع الداخلي في الأوطان المنكوبة، لتنسلخ عن كثير من علاقتها المتوارثة، وتنشطر علــى بعضها البعض في تكتلات ودويلات ومشيخات وولاءات ترضخ للحذاء الغربي واليهودي، وتستمد منه الغذاء والدواء والمال والسلاح والتعليم والترسيم والتقسيم والتقييم، وسبحانك اللهم هذا تان عظيم.

ولما انكشف القناع الكاذب في المرحلة الأخيرة وسقط شبح الشيوعية العالمية فجأة وانتهت مسرحية الحرب الباردة بين الغرب والشرق؛ برزت عورات السقوف المنــهارة في العــالمين العربي والإسلامي، وأخذت دول المنطقة تعيد ترتيب ذا ا وسياستها من جديد لتنطوي تحت السقف العالمي الموحد.. إنه السقف اليهودي الفاتح أبواب الاستقطاب، والمنتفع بمجمــوع التحولات السياسية والاقتصادية وصانع الاستقرار في دول معينة ثم في أخرى منها يصــدر الإرهاب.

ثمرات تخلي المسلمين عن السقف السياسي الإسلامي

كان لا بد لنا ونحن نتناول مسألة السقوف السياسية ومسؤوليا ا التاريخية في العـالمين العربي والإسلامي بعد الا يارات الاجتماعية في الأوطان ؛ لابد لنا أن نفصح عن هوية التحول المفاجئ وأسبابه ومقتضياته وملابسات الأمور التي تمكن بـه عقـل الكـافر والمستعمر أن يربط علاقات الود والصداقة المزعومة مع العناصر العربية متفرقـةً عـن بعضها البعض، مستغلاً الظروف والأحداث المحلية والعالمية، ومن أهمها ضـعف دولـة الخلافة ذا ا و يؤ العالم لإعادة تقسيم مناطق النفوذ قبيل الحرب العالمية الأولى، واقتناع زعماء العالم العربي آنذاك بضرورة النهوض بالوطن العربي من سبات الضـعف الـذي فرضه الظرف العالمي لدولة الخلافة وما تعانيه من الضغوط الداخلية والخارجيـة، ومـا صنعته الأيادي داخل بيت الخلافة من تحولات سياسية خطيرة على مستقبل الإسـلام والمسلمين.

ففي عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) نشأ في سوريا حزب عربي قومي، وكان هدفه تخليص البلاد العربية جميعها من النير التركي، وفي عام ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م) وجه هذا الحزب بياناً إلى الدول الأوروبية العظمى طلب حيادها، ونشر كتـاب لنجيـب عازوري بك يتضمن البرنامج، وقد طبع هذا الكتاب في باريس، واسمه « صحوة الأمة العربية في آسيا التركية »، وأصبح لزاماً على البلاد العربية -كما يقول المؤلـف- أن تتجاهل الخليفة السلطان في استنبول بعد أن أصبحت الخلافة مزرية لا يعتد ا.

وكان الهدف من ذلك: إمبراطورية عربية قوية تمتد من دجلة، والفـرات، وقنـاة السويس، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى خليج عمان، على أن يكون هناك سـلطان

منتخب، ودستور يضمن الحرية الكاملة للمواطنين.

« إن حزب النهضة العربية الذي تزعم الحركة لم يضع اعتباراً لمشـاعر المسـلمين الهنود، والأفغان، ولم يقدر آراءهم »[1]، هكذا كتب جاكوب عن مشكلة حـزب تركيا الفتاة، وبداية نشأته.

وبما أن اليمن كانت مسرحاً للقوتين المتحالفتين سراً –السياسة البريطانية وحـزب الاتحاد والترقي– فلنشهد إحدى هذه المسرحيات بين جاكوب، والقائمقام التركـي في نواحي قَعطَبة، كتب جاكوب -ينقل باختصار- : لقد ذكرت -في فصل سابق- مكائد الجمعية العربية التي كانت تحاك وتدبر في باريس، وكان لدى قائمقام تركـي آراء جريئة ووجهات نظر قوية حول المشكلة العربية، وكان غالبـاً مـا يـزورني في الضالع حيث كان يرغب في الحضور إليها لشراء البضائع، وكنا نشرب معاً أنخـاب بعضنا البعض ونرغب في تبادلها في أقداح الشمبانيا إلخ..

ثم كتب : وفي إحدى الأيام من شهر مايو عام ١٩٠٥م أسر إليّ بما عنده من سـر خفي عن الثورة المقبلة -يعني إسقاط الخلافة- وعن احتمال قيام خليفة عربي.

ثم قال : وبعد ذلك بأربع سنوات نفذ الأتراك الصغار من شباب تركيا الفتاة ذلك السر، وفي العاشر من مايو ١٩٠٩م استسلم عبد الحميد الثاني لمحمد رشاد الخـامس، وأفسح له الطريق.

وكتب أيضاً يصور فكرة القائمقام التركي في اليمن : ليست الحركة العربية حركة عصـيان وفوضوية، وإن واجبنا الديني يكون في الخدمة والعمل على تمهيد السبيل لنجاح تلك الثـورات، وتشجيع الزيود اليمنيين على أن يلقوا عن كواهلهم نير الاستعمار التركي، وأن يحصـلوا علـى

(١) « ملوك شبه الجزيرة » ص٩٠ .

الحرية التي يعشقو ا على مر الزمن، وهذا فرض مقدس واجب الأداء لبني الإنسان [1].

ثم قال : كان صديقي هذا واحداً من الأتراك الشبان المنتمين إلى جماعة تركيا الفتاة، وكـان يقوم بشرح وجهات نظر الحزب والترويج لها، وقد كون رأس مال من المساعدات التي يقـدمها الكثيرون من الأتراك لهذه الغاية، ومن ثم للتخلص من الخلافة العثمانية[2] .

وبدهاء السياسة البريطانية كتب معلقاً : وهنا يكمن الضـعف في برنـامج ذلـك الحزب، وفي منهاجه فيما أعتقد وأظـن، وكانـت الطريقـة المثلـى والأحسـن -لو اتبعوها- هي قيامهم بجمع الأتراك والعرب معاً على هدف واحـد، وسياسـة جديدة متسامحة، مع وجوب المحافظة على الوحدة الإسلامية تحـت عظمـة تركيـا وحماها، وهذه الطريقة – أي: مقترحه وفكرته – ليست ثورة، ولا عنفـاً يسـبب نكسة، وإنما إصلاحاً وارتقاء، وهو ما كانت اليمن وغير اليمن بحاجة إليه.

وعقِد المؤتمر العربي في باريس يونيو ١٩١٣م، حيث نوقشت حقوق العرب في الإمبراطوريـة العثمانية، وأصر المشاركون فيه - وأغلبهم من السوريين - على ضرورة الإصلاحات [3].

كانت سياسة الشريف حسين - أمير مكة وواجهة العرب آنذاك - مرتبطة بنهوض حركة التحرر الوطني في المناطق العربية من الإمبراطورية العثمانية، وفي مطلع القرن العشرين ظهرت في الامبراطورية العثمانية مختلف الجمعيات ومنظمات الدفاع عن حقوق العرب، وكان الكثير من القوميين العرب في بداية القرن العشرين يتصورون بسذاجة أن بريطانيا وفرنسا يمكن أن تساعد العرب بنـزاهة في التحرر من نير الأتراك، وقد خابت آمالهم بمرارة، كما أن البعض

(١) المصدر السابق ص١٤٣.

(٢) المصدر السابق ص١٤٤ .

(٣) « تاريخ العربية السعودية » للمستشرق فاسيلييف.

منهم دفعوا حيا م ثمناً لقصر نظرهم.

وتحدث المستشرق فاسيلييف عن تورط الشريف حسين في حبائل الإنجليز فقـال: قبيل بداية الحرب أقام الشريف علاقاته مع الإنجليز عـن طريـق القـاهرة، وكـان عبدالله بن الشريف حسين - وهو عضو في ا لمس العثماني - قد تقابل مـرتين مـع المندوب السامي البريطاني في مصـر اللـورد كيتشـنير عـام ١٩١٣م وفي بدايـة ١٩١٤م.اهـ.

وقد انطوت الخدعة على الشريف ووثق في بريطانيا ووعودها الخلابة، فأعلن الحرب ضد تركيا، واشتركت قواته في المعارك الدامية آنذاك، وإلى هذا يشير الكاتب الروسي فيقـول: شجعت بريطانيا العرب على الانتفاضة ضد الأتراك، ووصل الكونيول لورنس إلى القـاهرة بمثابة ضابط ارتباط إلى شريف مكة في أكتوبر ١٩١٦م، وأخذ الأشراف يقاتلون حاميـات الأتراك في ميناء العقبة إلى جانب الكولونيل الذي كان له دور فعال في المعارك.اهـ.

وقد أظهر الكاتب الروسي سبب انخداع الشريف ومعه عدد من القوميين العرب بوعـود بريطانيا وما جرى من الاتصالات بين الجانبين فقال : عندما اندلعت الحرب العالميـة الأولى بدأت المراسلات بين الشريف حسين والمندوب السامي البريطاني في مصر، وفي تلك الأثناء كان القوميون العرب- وخاصة جمعِيتا « الفتاة » و « العهد »- يستعدون للانتفاضـة ضـد الأتراك، وطرحوا شرطاً للتعاون مع الإنجليز، وهو اعتراف بريطانيا باستقلال البلدان العربية، لا يستثنى من البلدان العربية إلا عدن في جنوب اليمن، ونص برنامجهم على توقيـع اتفاقيـة دفاعية مشتركة بين بريطانيا والدول العربية المستقلة المرتقبة، وتقديم امتيـازات اقتصـادية لبريطانيا، واعترفوا بشريف مكة زعيماً للقوميين العرب.

وأثناء الحرب العالمية بدأت بريطانيا تلعب لعبتها العالمية ضد السقوف المنـهارة في

الوطن العربي، ففي عام ١٩١٥م استمرت المراسلات بين الشريف وبريطانيا بشـأن مصر والبلاد العربية، وبشأن ترسيم حدودها ثم استقلالها وإعلان الخلافة العربية مقابل التزام العرب بامتيازات اقتصادية لبريطانيا.

ورد المندوب السامي بالقاهرة على هذه المطالب بإجراء تعديلات فيها وفي مستقبل بعض المناطق كبغداد والبصرة، وقبيل إعلان الحسين الانتفاضة ضد الأتراك بأسابيع وقعت بريطانيا دون علم الشريف مع الحلفاء «بريطانيا وفرنسا» معاهدة «سـايكس بيكـو»، وشـطبت التزامات مندو ا السامي «مكماهون» في مصر مع الشريف.

وفي ٥ يونيو ١٩١٦م بدأ الشريف إعلان الاستقلال عن الخلافة العثمانية وهاجم الحاميـة التركية في مكة وتم استسلامها في يوليو، ومن ثم تم الاستيلاء عل سائر المـدن الكـبيرة في الحجاز ما عدا المدينة المنورة التي كان ا فرع من سكة حديد الشام.

وفي أواخر أكتوبر ١٩١٦ م أعلَن الشريف نفسه ملكاً على بلدان العرب ؛ إلا أنـه لم يعترف به أحد خارج الحجاز من العرب.

وقامت ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا أثناء هذه الحرب، ونشرت صحفُها نصاً لمعاهدة سايكس بيكو بشأن تقسيم الأمصار العربية، فأخـذها الأتـراك وسـلموها للشريف حسين فاتصل الشريف بالإنجليز طالباً رأيهم في صـحة هـذه المعلومـات، فاستلم منهم تأكيدات صارمة بأن هذه المعاهدة مزورة، فصدقهم.

وعندما أعلن الشريف حسين أنه مِلك العرب، أعرب أمير نجد عن احتجاجه وقام برسـم الحدود بين نجد والحجاز، وفي عام ١٩١٦ م حضر عبد العزيز اجتماعاً من الكويت نظمـه البريطاني بريس كُوكْيت وحضره شيخ الكويت، وقرر عبد العزيز أثناء الاجتمـاع التـزام جانب بريطانيا، واستلم آنذاك مع شيخ الكويت الوسام البريطـاني، وزار بعـدها البصـرة

حيث شاهد الأسلحة البريطانية ومنها الطائرات.

وتم الاتفاق على معونة شهرية من بريطانيا لأمير الرياض تقدر بمبلغ خمسة ألف جنيه استرليني وأربعة رشاشات وثلاثة ألف بندقية مع ذخير ا[1].

وكتب المستشرق عن تكشف نوايا الإنجليز للعرب فقال : في المرحلة الختامية للحـرب بدا للعرب أن الإنجليز لا ينوون تنفيذ الوعود، بل عقدوا المشكلة في تقسيم الأراضي العربيـة بوعد بلفور الصادر في نوفمبر ١٩١٧ م بشأن تأسيس موطن قومي لليهود في فلسطين.

وفي شهر يناير عام ١٩١٧ م أبلغت الحكومة البريطانية والفرنسية الشريف حسـين بأ ما تعترفان به ملكاً للحجاز فقط، فتأزمت العلاقة بين الشريف والإنجليـز ؛ إلا أن بريطانيا ثبتت مصالحها الخاصة في الجزيرة العربية من خلال مؤتمر فرساي.

واستسلمت الإمبراطورية العثمانية في ـاية الحرب العالمية، وظلت الجزيرة العربيـة تحت حكم خمس دول مستقلة لم تدخل في التقسيم السياسي، وهي:

(١) الحجاز (٢) نجد (٣) شمر (٤) عسير (٥) اليمن

وكان مستقبل هذه الدويلات مرتبطاً بالصراع الداخلي فيما بينها تحـت إشـراف السياسة البريطانية.

كتب وزير المستعمرات اللورد ميلز البريطاني في ١٦ مايو ١٩١٩ يقـول ص٢٩٥: كانت الجزيرة العربية المستقلة مبدءاً أساسياً دائماً في سياستنا الشرقية؛ ولكن ما نعنيه بذلك هو أن الجزيرة العربية رغم أ ا ستكون مستقلة بحد ذا ا فإ ا سـتبقى خـارج نطاق الدسائس السياسية الأوروبية وداخل النفوذ البريطاني، وبعبارة أخرى فإن ذلك

---

(١) « تاريخ العربية السعودية » للمستشرق الروسي فاسيلييف ص٢٩٢ .

يعني أن حكامها المستقلين لن تكون لديهم معاهدات أجنبية مع أحد سوانا[١].

لقد كان موقف العرب جميعاً من سقفهم السياسي الإسلامي موقفاً سلبياً، فا ار ـم البنـاء ، وكتب المستشرق الروسي متهكماً : بديهي أن انتفاضة العرب ساعدت على انتصـار الحلفـاء ، وحقنت دماء الجنود البريطانيين ؛ إلا أن العرب ضحوا بحيا م في الواقع لكي يقتسم المسـتعمرون فيما بعد البلدان العربية، وكان لورنس يعرف هذه الحقيقة ومع ذلك دفع عرب الجزيرة إلى الموت .

كتب لورنس يقول : بما أني لم أكن أحمق ائياً فقد رأيت أنه إذا انتصرنا نحن في الحـرب فإن وعودنا للعرب ستكون حبراً على ورق، ولو كنت مستشاراً نـزيهاً لبعثت رجالي إلى ديارهم، ولما سمحت لهم با ازفة بحيا م من أجل هذه القضية ؛ إلا أن الحماسـة العربيـة كانت أداتنا الرئيسية لنكسب الحرب في الشرق [٢].

وهكذا يفعل المستعمرون دائماً، يستغلون الحماس العـربي حـتى تتحقـق مـآر م، ثم يلفظو م لفظ اللبان بعد لوكه، وصارت هذه السياسة قاعدة للعمل وأسلوب الاسـتقطاب في كل المراحل، بل وفي كل مرحلة تهيج الجهات الاستعماريةُ حماسةَ العـرب لأغراضـها الاستراتيجية، وهي مطمئنةٌ كل الاطمئنان بأن زمام الأمور بيدها، ولا يملـك العـرب ولا المسلمون من الأمر غير الصراخ والعويل، وبعده الانطواء ضمن المصالح القاصرة.

إن الأمة العربية والإسلامية في حاجة إلى دراسة متأنية للمرحلة الغثائية.. مرحلـة السـقوط في أحضان الاستعمار.. وتحليل آثاره الخطيرة على تصرفات وآمال وأماني الأمة الإسلامية إلى اليوم.

---

(١) المصدر السابق ص٢٩٥ .

(٢) وكتب لورنس أيضاً : إن بريطانيا لم تفِ بوعودها إزاء العرب، حيث قمنا على اسـتغلال العاطفة العربية، وهي حبهم وتلهفهم للحرية من أجل انتصار بريطانيا. راجع «اليهود والدولة العثمانية» لأحمد النعيمي ص٢٣٨.

السقوف القومية والحزبية ودورها السلبي

كتب المؤرخ محمود شاكر : لقد ظهرت القومية في أوروبا بعد صراعات بين دولها المتعددة، وكانت كلها قد طرحت ديانتها من الحساب، ولم تعد العقيدة الرابط الذي يجمع بين دول القارة، وسقطت الكنيسة في المعركة التي قامت بينها وبـين العلـم للتباين بينهما، على عكس الدين الإسلامي، وهذا ما يجهله الأوروبيون، ويظنـون أن الأديان كلها تتعارض مع العلم .

ومع زوال العقيدة كرابطة بين النصارى ؛ وجدت الدول الأوروبية المتصـارعة في اللغة عنصراً أساسياً يجمع بين شعو ا، ولهذا كان العنصر واللغة أساس القومية الـذي عملت تلك الدول له لتكون عاطفة تربط بين رعاياها ا ة الدول الـتي تجاورهـا ولتحديد الحدود، أما الرابطة الأساسية بين المسلمين جميعاً إنما هي العقيدة، والمسلمون أمة واحدة لا اختلاف بين الأجناس والألوان أو اللغات ضمن هذه الأمة ؛ غـير أن بعض المسلمين الذين فُتِنوا بأوروبا و ر م حضار ا بدؤوا يأخذون كل مـا يخـرج عنها، سواء كان مفيداً أم كان مخالفاً للعقيدة، وكان مما أخذه هؤلاء فكرة القوميـة (١).

أخذ عدد من الترك بالفكرة القومية وبدؤوا يبثو ا سراً في أوساط ا تمع، وكـان معظمهم ممن لهم مصالح، وكان أكثر أفراد هذه الفكرة من الذين يعودون إلى أصـل يهودي، وهم الذين عرفوا بيهود الدونمة (٢)، ومن هؤلاء أيضاً الترك الذين تربـوا في

---

(١) « التاريخ الإسلامي » لمحمود شاكر (٨: ١٦-١٧).

(٢) المصدر السابق، و« الدونمة » كلمةٌ تركيةٌ تعني في الأصل: العائد، أي: العائد إلى الإسلام بعد أن كان تائهـا في

الغرب وتأثروا بأفكاره [1].

وأخذ عدد من العرب الفكرة القومية لأسباب تشبه الأسباب التي أخذ ا التـرك، فبعض العرب كان يطمع بإقامة خلافة عربية، ومنهم من كان يطمع بمناصب عالية في الجيش أو الحياة السياسية، ومنهم من كان ينادي بذلك باسـم الإصـلاح، وكلـها حسب الإغراءات التي كان تقدمها دول أوروبية ذات صلة بالمنطقة [2].

ونتيجة لذلك كانت فكرة القومية السلاح القوي الذي استخدمته أوروبا النصرانية

اليهودية، وكان اليهود يعنون ا المسلم ظاهرا واليهودي باطنا، وحين تفاقم خطر الدونمة صارت تعني القذر أو الخسيس. «أبناء يهوذا في الخفاء» (٢: ١٣٠) .

ويلخص نشأ م المؤرخ محمود شاكر في كتابه « التاريخ الإسلامي » (٨: ٢٠٣-٢٠٤) فيقول تحت عنوان « يهود الدونمة » : حدث اضطهاد لليهود في الأندلس في ايـة القـرن العاشر الهجري، فهرب كثير منهم وهاموا على وجوههم، وسمحت لهم الدولـة العثمانيـة بالاستقرار في بلادها بعد توسط زوجة السلطان سليمان القانوني، وهي من أصل يهـودي، فحصلت لهم على إذن بالهجرة إلى بلاده، فأقام قسم منهم في بلدة أزمير، ومن هذا القسـم أسرة سيفي التي ولد لها عام ١٠٣٥م ولد اسمه سباتاي، وهو الذي ينتمي إليه يهود الدونمة، وقد ادعى النبوة عام ١٠٧٥م وحكمت عليه رجالات الدين اليهودي بالإعدام ولكن لم ينفذ فيه، فرحل إلى استنبول فأثينا وتنقل بين إزمير واستنبول ثم استقر إزمير وتزوج فتاة يهودية، وبعد مدة اعتقل وأنكر ما سبق أن ادعاه من النبوة، ونقل سباتاي إلى مدينة أَدِرنة، وهنـاك أظهر الإسلام خوفاً من القتل وادعى أنه سيعمل على نشر الإسلام في أتباعه، وتظاهر هـو وأتباعه بالإسلام، وبدؤوا يعملون ضده من داخله، وزاد أثرهم عند دخولهم في جمعية الاتحاد والترقي .

(١) تابع تفاصيل الموضوع بإسهاب في « التاريخ الإسلامي » لمحمود شاكر، (٨: ٢٠).

(٢) المصدر السابق.

ضد أعدائها المسلمين أو ضد الخلافة العثمانية التي كانت تمثـل المسـلمين.. كـان أصحاب الفكرة القومية يرون أن الأتراك قد استعمروهم باسم الإسلام مدة تزيد على أربعة قرون، وأ م كانوا السبب في تخلفهم، إذ حجبوهم عن التيارات العالمية وحاولوا تتريكهم في النهاية.

والمعلوم أن الشعب التركي لم يكن مفضلاً على الشعب العربي يوماً من الأيام، اللهم إذا استثنينا المرحلة الأخيرة التي ظهر فيها حكم الاتحاديين الذين حكموا باسم القومية، فانتهى بذلك دور الإسلام[1]، وبدأ دور الحزبية والقومية ونشاط الجمعيات.

وكان الدور الأول والمؤثر في إضعاف حكم الخلافة العثمانية نشـاط الجمعيـات السرية والعلنية للصهيونية، بعد أن ازدادت هجرات اليهود من أوروبا، وبالأخص من روسيا القيصرية، بطريقة منظمة وثابتة إلى الكثير من بلاد الدولة العثمانيـة، ومنـها فلسطين، استجابةً لعاملين:

الأول: ضغوط الحكومات الأوروبية على اليهود وبغضهم .

والثاني: دعوات زعماء اليهود ومفكريهم الذين نادوا بإقامة وطن قومي لليهود.

وكان اليهود في الدول العثمانية يعيشون عيشة رخاء وأمن واستقرار كما جاء على لسان المفوض الأمريكي في قوله : إن الإسرائيليين تمتعوا بكافة الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة العثمانية [2] . وفي القرن السادس عشر ازدادت هجـرة

---

(١) راجع بتوسع المصدر السابق (٨: ٢٢-٣٩).

(٢) ((اليهود والخلافة العثمانية)) ص٣٨، وذكر المؤلف ص٦٢ ((حاشية)) من المصدر نفسه مـا مثاله : ساهم اليهود الأتراك في وضع الحجر الأساسي للكيان الصهيوني لما استغل اليهـودي التركي يوسف ناجي علاقته بالسلطان سليمان القانوني لإصدار قرار بإسكان حوالي خمسـة

اليهود إلى فلسطين، مما حدا بدولة الخلافة أن تدخل عدداً من التنظيمات الإدارية في فلسطين وتجعلها لاحقة إدارياً بالعاصمة إستنبول [١].

وفي هذه الحقبة نشطت المنظمات اليهودية بدعم من الدول الأوروبية على تنفيذ خطوط الاستيطان ومغازلة الدولة العثمانية في شأن قبول فلسطين وطناً قومياً لليهود، وظهرت كتابات هرتزل المبينة عدداً من خطط اليهود الاستيطانية، مثل كتاب « الدولة اليهودية » عام ١٨٩٥م .

وسافر عدد من الصهيونيين كهرتزل لإقناع بلاط الخلافة إصدار براءة تخول اليهود في استيطان فلسطين [٢]؛ ولكن الخليفة عبد الحميد وقف بحزم أمام هذه المسألة، وبدأ يتخذ العديد من الإجراءات ضد فكرة هجرات اليهود إلى فلسطين [٣]، وعلى الرغم من الإجراءات كان اليهود يقومون ببناء المستعمرات دون رخص رسمية[٤]، وتحت الظروف الصعبة والضغوط الأوروبية على الدولة العثمانية حاول السلطان عبد الحميد الثاني تقوية الرابطة الإسلامية عن طريق مفهوم الجامعة الإسلامية، واستطاع استقطاب بعض الزعماء العرب إلى جانبه كرد فعل ضد مفهوم التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية[٥].

إن تأكيد عبد الحميد الثاني على فكرة الجامعة الإسلامية كان لتحقيق الأهداف التالية :

آلاف يهودي بالقرب من بحيرة طبرية بعد فتحها عام ١٩٣٥م.

(١) « اليهود والخلافة العثمانية » ص٥٨-٥٩.

(٢) المصدر السابق ص٦٩.

(٣) المصدر السابق ص٣٧.

(٤) المصدر السابق ص٨٢ .

(٥) المصدر السابق ص١٠٦.

١. تقويض المشاكل التي هزت كيان الدولة العثمانية بعد موجـة حركـات الاستقلال للشعوب التي كانت تحت رعاية دولته.

٢. رغبة عبد الحميد إلى إحكام السيطرة ذه الجامعة علـى أرجـاء العـالم الإسلامي، ووقوفاً ضد سياسة مدحت باشا أحد دعاة القوميـة آنـذاك، وضد بعض الحركات السياسية التي تعمل للانقضاض على السلطة.

٣. جعل الفكر الإسلامي في موقعه الصحيح ضد الفكر الغربي الذي بدأ يعم أرجاء العالم.

وفي هذه الحقبة حاول اليهود -ممثلين بزعيم الصهيونية هرتزل- من التـأثير علـى السلطان عبد الحميد، بغية استيطان اليهود في فلسطين، مقابل تغطية ديـون تركيـا والإشراف على إصلاح أوضاعها الاقتصادية، وفي هذا يقول هرتزل: إن نحن حصـلنا على فلسطين سندفع كثيراً لتركيا، أو سنقدم عطايا كثيرة لمن يتوسط لنا، ومقابل هذا نحن مستعدون أن نسوي أوضاع تركيا المالية[1].

وبعد وساطات كثيرة وجهود كبيرة بذلها اليهود بعث عبد الحميد رسالة إلى أحد زعمـاء الصهيونية قائلاً :ـانصح صديقك هرتزل أن لا يتخذ خطوات جديدة في هـذا الموضـوع، لأني لا أستطيع أن أتنازل عن شبر من الأراضي المقدسة [2].

وعاود هرتزل محاولاته مرات ومرات كان منها عـام ١٨٩٩-١٩٠١ م ، ووعـد هرتزل الخليفة بمساعدة الدولة العثمانية وأن يحتفظ بمناقشاته السرية [3].

---

(١) المصدر السابق ص١٢٣ .

(٢) المصدر السابق ص١٢٠.

(٣) المصدر السابق ص١٤٤.

ولم يجد هرتزل لدى السلطان أي استجابة لرغباته فكتب عنه يقول : إن اسم «عبد الحميد الثاني» رمز مجموعة من أحط الخبثاء حرمت البلاد من أمنها وسعادتها[١].

وكتب يقول أيضاً : إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة ما دام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم مستمراً فيه .

وكتب في « مذكراته » : لا يمكن الاستفادة من الدولة العثمانية إلا إذا تغيرت حالتها السياسية بدخولها في حرب أو وقوعها في مشاكل[٢] .

ونتيجة لذلك بدأ اليهود يستغلون المشاكل التي كانت تعاني منها دولة الخلافة، واتصلوا بالجماعات المعارضة التي كان في مقدمتها جمعية الاتحاد والترقي، التي بدأت تنادي ببعض الشعارات التي منها: «الوطن»، «الدستور»، «البرلمان» . وكانت هذه الشعارات غير مألوفة في الدولة العثمانية، وكانت لجنة أو جمعية الاتحاد والترقي هي اللجنة التنفيذية لجمعية تركيا الفتاة [٣].

وترجع جذور هذه الجمعية إلى عام ١٨٦١-١٨٧٦ على عهد السلطان عبدالعزيز[٤]، وكان دور هذه الجمعية على ذلك العهد إصدار الصحف التي ترسل من

---

(١) المصدر السابق ص١٥٨.

(٢) « أبناء يهوذا في الخفاء » (٢: ١٣٨).

(٣) المصدر السابق ص١٥٨.

(٤) توالى على الخلافة العثمانية في مرحلة الضعف الخلفاء التالية أسماؤهم:

١- مصطفى الثالث (١١٧١-١١٨٧).

٢- عبد الحميد الأول (١١٨٧-١٢٠٣).

٣- سليم الثالث (١٢٠٣-١٢٢٢) .

الخارج إلى الدولة العثمانية بواسطة دوائر البريد الأجنبية، وشكلت جمعيـة الاتحـاد والترقي لها عدة فروع، فرع في باريس وفرع في ولاية سلانيك[1].

وتغلغلت خلايا الجمعية في صفوف الجيش العثماني ثم انتشـرت في بـلاد الشـام وتأسست لها فروع في يافا والقدس، وكان للجمعية ارتباطات سرية بواسـطة بعـض زعمائها في الحركة الماسونية، وكانت الجمعية تنادي بالقومية التركية الأصلية، واعتبروا أن ثقافة آل عثمان غريبة عن الأتراك، مقتبسة من الآداب العربية والفارسية [2]، وكـان لليهود أثر كبير على هذه الجمعية وغيرها من الدعوات القومية.

وكتب في هذا الصـدد نيـازي بـركس في كتابـه « المعاصـرة في تركيـا » : إن لليهود الأوروبيين واليهود المحليين في الدولة العثمانية في القـرن التاسـع عشـر

٤- مصطفى الرابع (١٢٢٢-١٢٢٣) .
٥- محمود الثاني (١٢٢٣-١٢٥٥) .
٦- عبد المجيد (١٢٥٥-١٢٧٧) .
٧- عبد العزيز (١٢٧٧-١٢٩٣) .
٨- مراد الخامس (١٢٩٣-١٢٩٣) .
٩- عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٨) ، وهو صاحب المواقف الآنف ذكرها.
وفي مرحلة تغلغل حزب الاتحاد والترقي تولاها :
١- محمد الخامس (١٣٢٨-١٣٣٧) .
٢- وحيد الدين محمد السادس (١٣٣٧-١٣٤٠) .

(١) سلانيك ميناء في اليونان، يبعد عن اسـتنبول ٢٥٠ كـم، ولـه موقـع تجـاري مهـم، «اليهود والدولة العثمانية» ص٣٠.

(٢) « اليهود والدولة العثمانية » ص١٦٢-١٦٤ .

والعشرين دوراً ضخماً في إرساء تيار «القومية» [1]، وكان لهم ضلع في جمعية الاتحـاد والترقي[2].

ويقول في هذا الصدد المؤرخ الفرنسي جاين براون : إن الدونمـة هـم أصـحاب المصيدة.. أذكى الأقوام والأجيال التي تعيش في مدينة سلانيك.. انتسب معظمهم إلى جمعية الاتحاد والترقي [3].

ويقول الكاتب اليهودي أورام غالاتي في كتاب « الأتـراك اليهـود » : إن الجماعـات اليهودية خارج نطاق عبد الحميد أيدت جمعية الاتحاد والترقي، وكان هذا التأييد مفيداً أثناء ما كانت الجمعية تعد العدة للانقضاض على عبد الحميد[4] .

كان كثير من جماعة الاتحاد والترقي قد فروا إلى مصر من مطاردة عبد الحميد، فاتخـذوها مركزاً من مراكز دعايا م، وأصدروا منها بعض الصحف والمنشورات، وتسـاهل معهـم الخديوي عباس عندما توترت علاقته بالدولة العثمانية [5] .

وجدير بالإشارة أن الجمعية الإسرائيلية كانت تعتبر إحدى الهيئات التي تتعـاون مـع هؤلاء الأتراك الذين لاذوا بالفرار إلى مصر [6]، وتغلغل نشاط جمعية الاتحاد والترقـي في طبقات ا تمع في الدولة العثمانية حتى بلغ بعض الطرق الصوفية.

---

(١) المصدر السابق ص١٦٦.
(٢) المصدر السابق ص١٦٦-١٦٧.
(٣) المصدر السابق ص١٦٩.
(٤) المصدر السابق ص١٧١.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.

كتب د. أحمد نوري [1] ما مثاله : وعليه فإن جمعية الاتحاد والترقي لم تركز فقط على الجيش فحسب، وإنما ركزت إلى جانب ذلك على بعض الطرق الصوفية في الدولة العثمانية، ومنها على سبيل المثال الطريقة البكتاشية[2]، حيث يقدر البعض أن نحوا من ثلث سكان الأناضول كانوا تحت تأثير الطريقة المذكورة، وكان عدد من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في الطريقة البكتاشية[3]، والبكتاشيون كانوا يدينون بالمذهب الشيعي [4] .

وجدير بالإشارة أن مجموعة من جماعة الاتحاد والترقي قد التجؤوا إلى مصر كما سبق . الأمر الذي أدى بالسياسة البريطانية إلى تأييد هؤلاء في مصر، وأعطى لهم كرومر كل الدعم والمساندة في التحرك السياسي داخل مصر مانحاً لهم صحفاً محلية [5].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) البكتاشية : مشتقة من بكتاش، رجل جاء من خراسان ببلاد فارس، عاش في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وقد تسمى هذا الاسم نسبة إلى بكتاش الولي الذي يقال: إنه ولد بإندونيسيا، وكان أبوه أميراً على إحدى المقاطعات وأمه خاتمة ابنة أحمد النيسابوري أحد علماء نيسابور . حاشية ص٢٠٤ « اليهود والدولة العثمانية » تابع الموضوع في لاحق صفحات المصدر.

(٣) المصدر السابق ص٢٠٨-٢٠٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق ص٢١٠.

الإطاحة بالخليفة عبدالحميد الثاني

تضافرت الجهود الداخلية والخارجية بمؤامرا ا المتلاحقة على التخلص مـن السـلطان عبدالحميد الثاني، وكان عبد الحميد يراقب هؤلاء عن كثب، إلا أن حركـة الجمعيـات كانت قوية حيث دفعوا الأهالي إلى مظاهرات صاخبة، مطالبين بإعادة الدستور وإحيـاء البرلمان، مما أدى إلى رضوخ السلطان عبدالحميد إلى مطالبهم عام ١٩٠٨ م.

وفي عام ١٩٠٩م زحف الجيش الثالث من سلانيك إلى العاصمة تحت قيادة الجنرال محمود شوكت، وتوجيه أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وكانت الفرق الأربـع الـتي توجهت إلى الآستانة، يقودها رمزي بك، وهو من يهود الدونمة في سيلانيك [١].

وبعد وصول الانقلابيين إلى العاصمة مارسوا الضغط على مفتي الإسلام محمد ضياء الدين لخلع السلطان، وذلك بتوجيه السؤال التالي إليه :

- إذا أحد الأئمة المسلمين اختص ذاته بأموال الأمة واستحلها،
- وإذا أقسم على صلاح نفسه بعد قتل ونفي رعاياه ظلماً وتعسفاً ثم حنث بالقسم،
- وإذا كان وجوده يسبب حرباً أهلية يراق فيها دم شعبه،
- وإذا ثبت بأن ذهابه سيحمل السلام إلى بلده،
- وإذا رأى القائمون على الحكم بأن هذا الإمام يجب أن يستقيل أو يخلع،

فهل يعتبر شرعياً الأخذ بحل من الحلين الأخيرين ؟

فجاء جواب شيخ الإسلام الذي كان يعرف أنه بات تحت رحمـة لجنـة الاتحـاد

(١) المصدر السابق ص١٥٥.

والترقي: نعم، يعتبر شرعياً[1].

وفي يوم الثلاثاء ٢٧ من شهر نيسان عام ١٩٠٩م اجتمع مئتان وأربعون عضوا من مجلس الأعيان في جلسة مشتركة، وقرر خلع عبد الحميد، وكتب عبـد الحميـد في «مذكراتـه» يقول: إن ما يحزنني ليس الابتعاد عن السلطة ؛ ولكن المعاملة غير المحترمة التي ألقاهـا بعـد كلمات سعد باشا التي خرجت عن حدود الأدب.

وقال عبد الحميد لليهودي الذي كان عضواً في الوفد، وهـو «قـرة صـو» [2]:

---

(١) المصدر السابق ص٢١٦.

(٢) اسم « قرة صو » الحقيقي ناحوم أفندي، وهو يهودي الأصل، تظاهر بالإسلام كما تظاهر يهود الدونمة بذلك، واتخذ له اسما تركيا قديما مغرقاً في تركيته « قرة صو » .

رافق « قرة صو » هرتزل إلى مقابلة السلطان عبدالحميد عدة مرات حين كان هرتـزل يلتمس بباب السلطان عبدالحميد إذناً بالدخول عليه لمنح اليهـود إذنـاً بتملـك أراضٍ في فلسطين، وعبدالحميد يرفض مقابلته.

وكان قرة صو رئيسا لمحفل سلانيك، وهو على رأس من خططوا لإسقاط عبدالحميد، ولمـا قابل قرة صو السلطان آخر مرة طرده شر طردة، ففر قرة صو من وجه عبدالحميد إلى إيطاليـا ثم عــاد إلى تركيــا عــام ١٩٠٨ م يحمــل دســتور الدولــة الجديــدة، وجــاء في سنة ١٩٠٩ م وبيده وثيقة تنازل السلطان. «القوى الخفية اليهودية» (٢: ١٠٠) .

وفي يوم من أيام تردد قرة صو على الخليفة عبدالحميد دخل مدفوعا من هرتزل ومندوبا عن الجمعية الماسونية يعرض عليه خمسة ملايين ليرة ذهبية هدية خالصة له يفك ـا أزمتـه المالية، ومئة مليون ليرة ذهبية أخرى قروضا تخلص ا الدولة من ديو ا بدون فائدة ولمدة مئة عام يقسطها أقساطا مريحة مقابل السماح لليهود ببعض الامتيازات في فلسطين.

فما كان من عبدالحميد إلا أن أشاح بوجهه عن قرة صو ونظر إلى الصدر الأعظم الذي كان يرافقه إليه وقال بحِدة: هل كنت تعرف ماذا كان يقصد هذا الخنـزير قبل حضـوره

ما عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة ؟ وبأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي[1] ؟

وبعد الإطاحة بحكم عبد الحميد سلم الحكم للسلطان محمود رشاد –شقيق عبد الحميد– وكان عمره ٦٤ عاماً، وتسمى باسم السلطان محمد الخامس، حيث كان ضعيفاً إذ كان لا يملك ولا يحكم، وتسلم الحكم في الدولة أعضاء الاتحاد والترقي وأشرف على الدولة أركان يهود الدونمة [2].

ونقل عبد الحميد بعد قرار الخلع من الآستانة إلى ولاية سلانيك في ٢٨ نيسان ١٩٠٩ م مع أسرته وبعض مرافقيه وخدمه، ثم نقل إلى أحد قصور استنبول النائية حيث توفي عن عمر يناهز الثامنة والسبعين في ١٠ شباط عام ١٩١٨ م .

وقد اعتبر اليهود والماسونيون هذا اليوم عيداً لهم ابتهجوا وساروا بمظاهرة كبيرة في مدينة سلانيك، وطبعوا صورة المظاهرات في بطاقات بريدية لتباع في الأسواق مدة طويلة [3].

وتسلم اليهود مراكز عالية بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد في مجالس الاتحاد والترقي، وعبر عن ذلك السفير البريطاني في استنبول في مذكرة رفعها إلى وزارة الخارجية البريطانية : إن لجنة الاتحاد والترقي تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً يهودياً تركياً مزدوجاً، فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدها اليهود بالعقل المدبر والمال وبالنفوذ الصحفي القوي في أوروبا، إن

معك؟ فلما أنكر هذا معرفته بذلك نظر عبدالحميد إلى قرة صو وقال باشمئزاز: « أُغْرب عن وجهي يا سافِلُ وإلاّ.. » ، فخرج قرة صو من عنده إلى الباخرة متوجهاً إلى إيطاليا، ومن الباخرة أبرق برقيةً لعبدالحميد قال فيها: رفضت عرضا سيكلفك ويكلف دولتك كثيرا. راجع « أبناء يهوذا في الخفاء » (٢: ١٣٨).

(١) المصدر السابق ص٢١٩-٢٢٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

اليهود الآن في موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للدولة[1].

وقد لخص المؤرخ محمد شاكر نبذة عن السلطان عبدالحميد الثاني في الجزء الثامن من «تاريخه» فقال:

ولد عام ١٢٥٩ هـ وتولى الخلافة بعد عزله لأخيه مراد الخامس عام ١٢٩٣هـ ـ وعمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة، وفي عصره ظهرت الدعوات العصبية وتأسست الجمعيات ذات الأهداف السياسية، وبرز أثر الإرساليات التبشيرية النصرانية، وظهرت في العالم العربي والغربي ما سمي بالقومية، وتأسست لأجلها الجمعيات والمنظمات، مثل الجمعية العربية العلمية عام ١٢٧٣هـ ، وضمت مئة وخمسين عضواً من النصارى أمثال البستاني واليازجي، ومنهم نصارى أظهروا الإسلام أمثال الشدياق وغيره، وأنشأت الجمعيات أيضاً في إستنبول وضمت مختلف العناصر، وخاصة المفتونين بأوروبا، والمتعصبين للتتريك، وأصحاب المصالح كاليهود، والناقمين على الحكم.

ومن أشهر هذه الجمعيات جمعية تركيا الفتاة، التي تأسست في باريس وأنشئت لها فروعاً في الداخل والخارج، وكان أول رؤسائها أحمد رضا بك، الذي تأثر بأوروبا والثورة الفرنسية وحرر جريدة «المشورة» داعياً إلى تقليد الغرب، وكانت المحافل الماسونية مهتمة كل الاهتمام بحركة الجمعيات ونشاطها، ومن الذين فتنوا بأوروبا وأفكارها رجال كان لهم دور خطير في الدولة كأحمد مدحت باشا رئيس مجلس الدولة، وغيره .

وفي هذه المرحلة اتفقت الدول الأوروبية على الإجهاز على الرجل المريض، فظهرت روسيا من جهة والدول الأخرى من جهة ثانية، وفي وسط هذه الأمواج والتيارات تسلم

---

(١) المصدر السابق ص٢٣٢.

عبد الحميد الثاني الخلافة، فكان عليه أن يسير بالدولة إلى شاطئ النجاة، فحـاول جمـع كلمة الأمة، ودعم المسلمين ضد حكامهم، وقرب العلماء واستمع إلى نصائحهم، وسـار مع الصوفية، ونظم المحاكم، وتابع العمل في « مجلة الأحكام العدلية » وفق الشريعة، وقـام ببعض الإصلاحات، حتى إنه اضطر إلى مسايسة الوضع العالمي، فكلما شعر بأن إحـدى الدول الأوروبية تريد الضغط على العثمانيين لإ اء الدولة يلين لها ويظهر التقـرب لهـا، وذلك بتعيين الصدر الأعظم –وهو ما يشبه رئاسة الوزراء- من الذين يوالو ا على النحو التالي :

- كامل باشا « يؤيد السياسة الانجليزية » .
- سعيد باشا « يرغب في التقرب إلى فرنسا » .
- خليل باشا « يود مسايرة روسيا » .
- توفيق باشا « يحب زيادة النفوذ الألماني » .

وعامل الأقليات والأجناس غير التركية معاملة خاصة تضعف فكرة العصبية، وكان يتجاوز عن بعض الإساءات كمثل مؤامرة الأرمن مع اليهود واغتياله أثناء خروجـه للصلاة. وقد أعطى جميع رعايا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون، وأبـاح التعلـيم وجعله إجبارياً على جميع الرعايا، وسمح بحرية المطبوعات، وأبطـل التعـذيب أثنـاء التحقيق ومصادرة الأموال.

ولكن الأوروبيين أثاروا على الخليفة ثورات القومية والعرقية، فثورة في بلاد الهرسك بتحريض من الصرب ؛ ولكن السلطان أخمدها، ثم قامت النمسا أيضاً بثـورة لضـم البوسنة والهرسك إليها، ورفعت لائحة الإصلاح إلى السلطان، فوافق عليها ؛ ولكـن نصارى البوسنة والهرسك لم يقبلوا ذلك.

وقامت ثورة البلغار لنشر النفوذ الروسي، تدعمها روسـيا، وأُخمـدت، ثم ثـورة

الصرب والجبل الأسود بتشجيع روسيا والنمسا وألمانيا، وانتهت الحروب بالصلح، ثم قامت حرب فرنسا مع روسيا تقدم فيها الروس في ولايات الدولة العثمانية وتم فيهـا أيضاً الصلح.

وفي مساكن الأناضول تقدمت القوات الروسية واجتاحت بلغاريا ثم دخلت تركيـا ولم يبق بينها وبين استنبول سوى خمسين كيلومترا، وهتك المسلمون قـتلاً وذبحـاً، وانتهت المعركة بالصلح وعقد مؤتمر بين الدولة العثمانية وروسيا، ووقع العثمـانيون على عدة شروط في ما يسمى بمعاهدة سان سيفانوس ١٢٩٥هـ، ثم عدلت المعاهدة في اتفاق آخر سمي معاهدة برلين حصلت بموجبها الدول الأوروبية على أجزاء مـن المقاطعات العثمانية .

وفي الولايات العثمانية الداخلية كانت الدعوات المفتونة بأوروبـا تعبـث بالحيـاة السياسية، وتحارب الخليفة، وترتبط بالغرب معجبةً بما فيه، فبرز دور الجمعيات، ومنها جمعية الشبيبة العثمانية، التي تأسست في استنبول عام ١٢٨٨هـ، و دف إلى تغريب الدولة العثمانية، ولما ضغط عليها نقلَت مركزها إلى باريس، ثم انضم أعضاؤها عـام ١٢٩٩هـ إلى جمعية الاتحاد والترقي.

وبرز دور المطالبة بوطن قومي لليهود على لسان هرتزل الذي سـعى إلى مقابـل الخليفة عدة مرات لهذا الغرض، ولم يفلح في طلبه إلا مرة واحـدة رد عليـه فيهـا السلطان بجفاء وغلظة ورفض طلبه وحذره من ذلك، فزاد حقده على السلطان، وبدأ مع اليهود بحياكة المؤامرات ضد الخلافة حتى إسقاطها.

وكانت مدة حكم السلطان عبد الحميد أكثر من ثلاث وثلاثين سنة قدم من خلالها خدمات جليلة للإسلام والمسلمين منها :

١. حفظ الدولة من الا يار بعد الحرب مع روسيا.

٢. قمع تمردات الثوار في أوروبا والولايات.

٣. انتصر على اليونان.

٤. درب الجيش على القتال الحديث بواسطة المانيا.

٥. فتح المدارس ودور المعلمين والجامعة بكليا ا.

٦. أنشأ دار العلوم السياسية.

٧. أنشأ دار الفنون النسوية والمتاحف والمكتبات ومدرسة الطب ومستشـفى الأطفال ودار العجزة ومركز البريد ومد مياه الشرب والغـرف الزراعيـة والصناعية والتجارية ومعملاً للخزف.

٨. أقام الخط الحديدي الحجازي من دمشق إلى المدينة المنورة، واستغرق العمل فيه سبع سنوات، من عام ١٣٢٠-١٣٢٧هـ.

٩. دعا إلى الجامعة الإسلامية، وقطع الطريق على الأحلام اليهودية في عهـده حتى تم الانقلاب عليه.

دولة الاتحاد والترقي والحرب العالمية

دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء عام ١٣٣٢ هـ ـ (١٩١٤ م) بدافع من رجالات حزب الاتحاد والترقي ، رغم المعارضات التي جـرت داخل الدولة، ومع عدم علم الخليفة والصدر الأعظم بذلك إلا فيما بعد، ولمـا علـم وافق تحت الضغط والقبول بالأمر الواقع وأعلن الجهاد المقدس ضد الحلفاء، غـير أن المسلمين لم يتجاوبوا مع تركيا لأن ألمانيا دولة نصرانية مثل بقية دول الحلفـاء، ولأن رجال الاتحاد الترقي لم يكن لديهم الحماس الديني، إضـافة إلى ضـعف المسـلمين وتفككهم، فكانت نتيجة الحرب استسلام الدولة العثمانية وانهزام الجيـوش في كـل الجبهات، ووقعت الهدنة بين ضباط عثمانيين وإنجليز على ظهر البـاخرة أنمـامنون، وأعلنت الدولة استسلامها[1].

وكانت ثمرة حكم الاتحاديين الذي لا يتجاوز عدة سنوات أنهم قد أضاعوا كل أجـزاء الدولة في أوروبا، فاستقلت بلغاريا، واحتلت النمسا البوسنة والهرسك، وأخذت اليونـان تكريت، واحتلت إيطاليا ليبيا وبعض جزر البحر المتوسط ، وسـقطت وزارة الحكـم في تركيا بعد الحرب، وغادر تركيا زعماء الجمعية الذين كانوا سبباً في الهزيمة.

وبعد أن تكشفت سياسة اليهود والماسون لدى قادة الحركة الانقلابية على الخلافـة العثمانية بدا الأسف والأسى على شكل تعبير فردي، ومع أنه لم يعد يسمن ولا يغني من جوع ؛ إلا أنه شاهد حقيقي على انطواء السقوف الحزبية والجمعيات تحت هيمنة المنظمات اليهودية الماسونية ضد الإسلام كله.

---

(١) « التاريخ الإسلامي » لمحمود شاكر (١٧: ١٥).

كتب أنور باشا : نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد فأصبحنا آلة بيد الصـهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية، فهذا ذنبنا الحقيقي [1] .

وبقي في الدولة من حزب الاتحاد والترقي من الدرجة الثانية من أمثال مصطفى كمـال، الذي قربه الخليفة وحيد الدين وأوكل إليه مهمة المفتش للجيش، ونجح الحلفاء في السـيطرة على العاصمة استنبول وحل البرلمان، ولكن مصطفى كمال انشق عن الحكومة وأقام مجلساً في أنقرة وجهزت الدولة الجديدة جيشاً على مصطفى كمال ؛ ولكن المعاهدة التي وقعهـا الخليفة مع الحلفاء أوقفت الحرب ونصت على شروط مجحفة للعثمانيين.

وبعد فوضى داخلية تقلبت فيها الوزارة وتقدمت فيها اليونان على تركيا، وجرى انقلاب في إستنبول، واعتزل السلطان محمد وحيد الدين، ورحل إلى جزيرة مالطة، وعين بعده ابـن عمه عبدا يد[2] الثاني، وجرد من كافة السلطات السياسية.

وعقد مؤتمر لوزان عام ١٩٢١ م وحضره وفد مصطفى كمـال، ووضـع الوفـد الإنجليزي أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا :

١. إلغاء الخلافة الإسلامية.
٢. طرد الخليفة خارج الحدود.
٣. إعلان علمانية الدولة.
٤. مصادرة أملاك بني عثمان.

---

(١) المصدر السابق ص٢٢٨.

(٢) هو آخر سلطان عثماني لتركيا إبان مرحلة الفوضى والحرب الداخلية بين الأتراك واليونان، ومرحلة تدخل إنكلترا مباشرة في الشؤون الداخلية ، عين سلطانا بتاريخ ١٧ ربيـع الأول ١٣٤٠ هـ الموافق ١٧ تشرين الثاني ١٩٢١ م، وفي نفس العام صدر قرار إلغاء الخلافـة. راجع « التاريخ الإسلامي » لمحمود شاكر (١٧: ٣٧) .

وتوقف نجاح المؤتمر على ذلك، فأخفق المؤتمر، ورجعت الوفود، واستغل مصـطفى كمال الظرف القائم، ومنه استقالة رئيس الوزارة، فحل مصطفى كمـال الجمعيـة الوطنية، وأعلن الجمهورية وانتخب رئيساً لها.

ودعا ا لس الوطني لعقد جلسة، وقدم مرسوماً بإلغاء الخلافة وطرد الخليفة، وفصل الدين عن الدولة، وأمر عبد ا يد بالسفر إلى سويسرا[١] ، وأصدر مرسـوماً بإلغـاء الوظائف الدينية، وامتلاك الدولة للأوقاف، واعترفت إنجلتـرا باسـتقلال تركيـا، وانسحبت من المضايق واستنبول، وطويت صفحة الخلافة عام ١٣٤١هـ .

(١) هو آخر سلطان عثماني لتركيا إبان مرحلة الفوضى والحرب الداخلية بين الأتراك واليونـان ومرحلة تدخل إنكلترا مباشرة في الشؤون الداخلية، عين سلطانا بتاريخ ١٧ ربيع الأول عام ١٣٤٠ هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٢١ م) ، وفي نفس العام صدر قرار إلغاء السلطنة . راجع « التاريخ الإسلامي » لمحمود شاكر (١٧: ٣٧).

آثار اللعبة العالمية وتقاسم تركة الرجل المريض

كان اليوم السابع من ربيع الآخر عام ١٣٢٧ من الهجرة -والذي يوافـق السـابع والعشرين من شهر إبريل ١٩٠٩ م - يوما مشؤوماً في تاريخ القرار الإسلامي العـالمي، وهو أيضاً نقطة التحـول الخطـيرة في مسـيرة العلاقـة بـين الدولـة العثمانيـة -دولة الخلافة- والدول الأخرى.

ففي هذا اليوم أُجبِر السلطان عبد الحميد على التنازل على الخلافة كما سبق، وبـدأ بهذا عهد الحكم الطوراني[1] الداعي إلى القومية التركية، والقائم على إثارة العصبية لدى العرب من جهة، والأتراك وبقية الأمم من جهة أخرى.

ولعبت الدول الكبرى لعبتها في الركائز المضطربة آنذاك، وأخذت تحرك لعبة القوميات والعصبيات في دولة الخلافة، حتى انفصلت كثير من البلدان عن دولة القرار المنهارة.

وارتكز محور الانقسام والتجزؤ عن دولة الخلافة بتحريك روسيا القيصرية دولـةَ صربيا والبلقان والبلغار على الثورة ضد الدولة الإسلامية، وإنشـاء حلـف دفـاعي مشترك ضد الدولة العثمانية، مما أدى إلى نشوب حرب بين روسيا والعثمانيين أدى في نهاية الأمر إلى هزيمة الدولة العثمانية، وعقد معاهدات مجحفة، ومنها معاهدة سـان ستيفانوس [2]، ومعاهدة برلين، و بهما حصلت الدول الأوروبية علـى نصـيب مـن أراضي الدولة العثمانية [3].

(١) طوران نسبة إلى جبل في تركيا ، والمقصود بها العرقية التركية.

(٢) راجع « التاريخ الإسلامي » لمحمود شاكر (١٧: ١٩٥ – ١٩٨).

(٣) معاهدة سان ستيفانوس : نسبة إلى بلدة قرب استانبول التقى فيها مندوبو الدولة العثمانيـة،

وانتهزت إيطاليا فرصة انشغال الدولة العثمانية بمشاكلها الداخلية، فهاجمت ليبيا على حين غرة بمساعدة فرنسا، واحتلت طرابلس وبرقّة رغم مقاومة الشعب الليبي.

واحتلت فرنسا الجزائر وتونس مدعيةً أ ا تدافع عنها عام ١٢٩٩هـ، وتدخلت بريطانيا في شؤون مصر حتى تمكنت من احتلالها عام ١٢٩٩هـ، ثم تدخلت في شؤون السودان حتى تم احتلالها، وتقاسمت بريطانيا شرق إفريقيا مع فرنسا وإيطاليا والحبشة .

وقبل ذلك في عام ١٩١٧م جاءت ثورة البلاشفة في روسيا، وحل الشيوعيون محل القياصرة أثناء الحرب العالمية، وقاوم المسلمون الروس مقاومة شديدة لأعوام طويلة حتى تم للروس احتلال المناطق، ففرقوها إلى عدة قوميات، وأسموها جمهوريات، مع أ ا – في حقيقتها – مقاطعات بلد واحد، وعمل الروس على إعدام زعماء المسلمين، وعلمائهم، وأحرقت ديارهم، و بـت

ومندوبو روسيا، ووقّعت تركيا في هذا المؤتمر على شروط كتبها الروس، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع، أو أن تتقدم الجيوش الروسية وتحتل العاصمة استانبول، وكان ملخص هذه المعاهدة :

١- تعيين حدود جديدة كما تفرضها الحرب للجبل الأسود، واستقلاله عن تركيا.
٢-استقلال الصرب، وترسيم حدود جديدة وفق خريطة الروس.
٣-استقلال بلغاريا إدراياً مقابل دفع مبلغ محدد للدولة العثمانية، ويعاد ترسيم الحدود، وينسحب العثمانيون ائياً من بلغاريا.
٤-استقلال دولة رومانيا.
٥-تدفع الدولة العثمانية غرامة مالية تعويضاً للخسارة الحربية، أو أن تتنازل الدولة العثمانية عن بعض الأراضي للروس.
٦-تبقى المضائق البحرية: « البوسفور والدردنيل » مفتوحة للملاحة في السلم والحرب.
٧-يسمح للمسلمين القاطنين في المقاطعات الداخلة في الترسيم الجديد للحدود أن يرحلوا إلى حيث يريدون من أراضي الدولة العثمانية الأخرى.

أموالهم، وأبعد الرجال عن أهاليهم، وحولت المساجد إلى مسارح ونواد للرقص واللعب، ومنعت صلاة الجمعة، ومنعت رحلة الحجاج السنوية إلى بيت الله الحرام، وأُغلِقَت مدارس التعليم الديني والقرآن، وفتحت مدارس التعليم لمبادئ الشيوعية.

وعند نهاية الحرب العالمية كانت الدولة العثمانية قد خسرت أجزاء كثيرة من أراضيها، وكان على الوزارة العثمانية أن تستقيل، وهي وزارة الاتحاد والترقي.

وتألفت وزارةٌ جديدةٌ وقعت هدنةً مع إنكلترا في شهر أكتوبر عام ١٩١٨ م، وهي الوزارة التي مهدت لقيام الدولة العلمانية، وانهار السقف المتداعي على الركائز المتهالكة.

وغادر كبار رجال الحكم من وزارة الاتحاد والترقي – الذين كانوا سبباً في اشتعال فتيل الحرب وفي إسقاط الخلافة – على سفينة المانية من إستنبول إلى شبه جزيرة القرم، ومنها إلى برلين[١].

---

(١) كان حزب الاتحاد والترقي أميل إلى الألمان، وهم الذين حملوا الدولة العثمانية على دخول الحرب إلى جانب المانيا، بل كانت البعثات العثمانية للتدريب العسكري تتدرب في المانيا قبل غيرها، ويشرف على تدريب العسكر ضباط المان، وأعطى جماعة الاتحاد والترقي لألمانيا تسهيلات اقتصادية في الدولة العثمانية بما لم يسبق له مثيل، ولهذا كان مصير جماعة الاتحاد والترقي - بعد أن انتهى دورهم السياسي - إلى برلين.

كتب محمود شاكر في كتابه « التاريخ الإسلامي » (١٧: ١٦):

عندما خططت الدول النصرانية - وإنكلترا خاصة – لحزب الاتحاد والترقي، هيأت رجاله وقادته لمرحلة معينة، وهي السيطرة على البلاد، وبتحقيقها ينتهي دورهم وقت ذلك، وتمت المرحلة الأولى، وأما المرحلة الثانية فكانت البحث عن الرجل الذي تناط به مهمة إلغاء الخلافة، وأهم شروط هذا الرجل الحقد على المجتمع، والاستهتار بالقيم، والعداوة للإسلام.

وقد وجدت هذه الشروطَ مجتمعةً في مصطفى كمال [1]، ومال الحلفاء إلى مصطفى

---

(١) ولد مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٢٩٦هـ، ونشأ منشأ العلاقة الأولى، ثم درس في المدارس الحربية، وتخرج من الكلية الحربية برتبة رائد، وألف جمعية الوطن والحرية في الشام مع بعض المنفيين هناك، ثم انضم مع جمعيته إلى حزب الاتحاد والترقي، وكانت له صلات مشبوهة تظهر في كلامه عندما يشرب الخمرة ويسكر، وكان مستهتراً بالقيم. ترقى في مناصب عسكرية عديدة كان من أهمها تعيينه نائباً لقائد الجيش الثاني المرابط في شرق تركيا، وأُرسل إلى المدينة المنورة قائداً للقوة الجوالة في الحجاز، كما كلف بعد ذلك بقيادة الجيش السابع المكلف عن الدفاع عن بلاد الشام خلال الحرب العالمية.

وعند نهاية الحرب واستسلام العثمانيين عينه الخليفة مفتشاً عاماً للجيوش، وزوده بصلاحيات وأموال ليقوم بمعارضة الاحتلال في بعض أنحاء تركيا، ومن خلال موقعه عقد صفقة الحكم والانفصال عن الدولة المركزية في استنبول مع الإنكليز، ودعا إلى مؤتمر عام لمعالجة أوضاع تركيا بعد الحرب، وانعقد المؤتمر برغم معارضة حكومة استنبول له، وانتخبت مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر، وبعدها جعل من أنقرة عاصمة له ولحكومته، وأخذ يساوم الحلفاء في سبيل إنجاح طموحه، والوصول إلى الحكم، فهاجمت قوات الحلفاء العاصمة استنبول، واحتلتها، وأُسقِطَت الحكومة المركزية في تركيا، وظن الشعب أن حكومة مصطفى كمال في أنقرة هي الحكومة الشرعية المدافعة عن حقوقهم بعد سقوط الدولة المركزية، وبهذا

أتاتورك، وبدأت تركيا تلقى شيئاً من الرعاية أكثر من ذي قبل، وخاصة من قبل إنكلترا التي كانت تنافس المانيا في جذب عواطف الأتراك، واسـتأنس الغـرب إلى موقـف

دعا الشعب إلى انتخابات جديدة رشح فيها مصطفى كمال غيابياً بينما شـكّل مصـطفى كمال حكومة في أنقرة في ٥ شعبان ١٣٣٨ هـ (٢٣ إبريل ١٩٢٠م)، وأظهـر للنـاس الاستقامة حتى مال الناس إليه، ووقفوا ضد الخليفة العثماني، وجرت مناوشات عديدة بـين الخليفة المنهار، وبين مصطفى أتاتورك، ودعا الإنكليز إلى مؤتمر لندن لحل المسألة الشـرقية حضره مندوبون من حكومة مصطفى كمال، ومندوبون عن الخليفـة، ووضـع الحلفـاء شروطهم للانسحاب، ورجع المؤتمر دون اتفاق، وتبدلت الحكومة في أنقرة مـرات وفقـاً لرغبات مصطفى كمال، كان آخرها الحكومة التي قررت إلغاء السلطنة، وإعلان الجمهورية في ٢٠ ربيع الأول ١٣٤٢هـ (٣٠ تشرين الأول ١٩٢٣م)، وانتخب مصطفى كمال رئيساً بالإجماع من المجلس النيابي، ووقع بعدها الصلح مع الحلفاء بيومين، وظلت حكومة مصطفى أتاتورك تروض المجتمع التركي لقبول إعلان العلمانية باتخاذ الإجراءات المتتالية وقتها :

١-ترك الطربوش التركي، وصدر به مرسوم في ٢٧ محرم ١٣٤٣هـ.
٢-إلغاء حجاب المرأة.
٣-تحول العطلة الأسبوعية من الجمعة إلى الأحد.
٤-منع التعامل بالأبجدية العربية، واتخذ بديلاً عنها الأبجدية النصرانية.
٥-أصدر أمراً بأن يكون الأذان باللغة التركية.
٦-إلغاء القوانين الشرعية، وإقامة الدستور المدني.
٧-تعميق العرقية الطورانية، وتتريك الترك.

وتخلى مصطفى أتاتورك – خلال مرحلة حكمه – عن جملة مـن أراضـي تركيـا، وسواحلها، ومضايقها، ومنحها للحلفاء والوطنيين من أتباع الدول الغربية والشرقية. ومات مصطفى أتاتورك عام ١٩٣٨ بعد حكم لرئاسة الدولة استمر حوالي خمسة عشر سنة. اهـ عن « التاريخ الإسلامي » (١٧: ٥١-٧١).

مصطفى كمال - بعد إعلان الدولة العلمانية في تركيا – وأغدقوا عليـه المسـاعدات، والمشورة، وساندوا قراراته ا حفة، وحقق الطاغية الفاجر ما تمنوه في أمة القرآن، وهـو **سقوط القرار الإسلامي** بين **عشية وضحاها**.

الحرب العالمية الثانية والسقوف الجديدة

في ١٧ رجب عام ١٣٥٨ هـ الموافق ١ أيلول عام ١٩٣٩ م اندلعت نار الحرب العالمية الثانية، واتجهت أنظار الناس إلى جبهات القتال، وكانت تركيا - خلال هذه الحرب - في معزل عن ساحات القتال، ولكنها كانت تشهد التحول الجديد داخل مؤسساتها ومواقعها الشعبية والرسمية، والإغراب عن الإسلام ومبادئه، فبعد هلاك مصطفى أتاتورك تسلم الحكم عصمت إينونو [1] إثر انتخابات رئاسية، وسار هذا الحاكم على نهج أتاتورك في معاداته للإسلام، وإذلال الأمة، وإبراز العصبية القومية، وربط البلاد بالتبعية الرأسمالية الغربية.

وفي أتون الحرب العالمية الثانية عمل الحلفاء على تقسيم وتجزئة دولة الخلافة مع وعدهم لليهود بفلسطين، وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية إلا وقد ابتلعت الدول الغربية كافة البلاد التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية، واعترفت الدول الغربية بفلسطين وطناً قومياً لليهود، وصوتت حكومة تركيا العلمانية إلى جانب الاعتراف بدولة اليهود في فلسطين.

ومنذ تلك الحقبة ودولة تركيا تتقلب بين الهيمنة الإنكليزية والأمريكية ؛ إلا أن الهيمنة الأمريكية تغلغلت بعيد الحرب الثانية، وثبتت دعائم نفوذها أكثر من إنكلترا، وأخذت تركيا دورها في اللعبة الدولية منذ ذلك الحين.

وبرغم هذه التحولات الخطيرة في تاريخ العالم الإسلامي بمجموعه، ودولة تركيا العثمانية

---

(١) تابع نبذة حياته في كتاب « التاريخ الإسلامي » (١٧: ٧٣).

بخصوصه، بقيت روح الإسلام تشب في الأتراك المسلمين، وقام النشطون من أبنـاء تركيـا المسلمة في إعادة تشكيل أنفسهم ضمن أحزاب منظمة جديدة للوقوف ضد المد العلمـاني في تركيا، فظهر حزب السلامة الوطني الذي أخاف الدوائر الاستعمارية، وجعلها تشـدد مـن مراقبة الحركات الإسلامية، وتمنع النشاطات الفكرية، وتقوم بالدراسات الميدانية للحد من تكتل المسلمين المتطلعين إلى دينهم الحنيف، وامتلاك شوكة قراره تحت أي مسمى أو فكرة .

ولذا فقد كانت الانقلابات العسكرية المدفوعة أفضل أسلوب اتخذه الغرب للسيطرة على الأوضـاع الملتهبـة في تركيـا.. بإقامـة الأحكـام العرفيـة، ثم العـودة -عند الاطمئنان- للأحكام المدنية.. وهكذا حتى تم ترويض العالم الإسلامي والعربي علـى سياسة التجزئة والتفرقة، وتثبتت سياسة التقسيم للوطن الإسلامي والعربي تحت سمع وبصـر الأمم المتحدة، وصار الإسلام في صورة سياسة «فرق تسد» إحدى وسائل اللعبة العالميـة في المنطقة، فجاءت تركيا العلمانية تتقرب من دول العالم الإسلامي، ودخلت في مجموعة مؤتمر العالم الإسلامي، وتحسنت علاقتها مع أكثر البلدان الإسلامية، والعربية، وتطورت العلاقات الاقتصادية بين تركيا وبين بقية دول المنطقة العربية عموماً[(١)].

وتعددت الأحزاب السياسية في تركيا، ويعني ذلـك: تشـتت القـوى الداخليـة في تشرذمات السياسة والتنظيرات، حتى بلغت مجموع الأحزاب الرئيسية والتجمعات حوالي أحد عشر حزباً وتجمعاً[(٢)]؛ ولكن القاعدة الشعبية في تركية قاعدة مسـلمة، ومتمسـكة بالإسلام ومحافظة عليه، وقائمة بنشره وتعليمه داخل المدارس والأربطة والمساجد، ويـبرز هذا المد الشعبي بين الحين والحين لينذر العلمانيين بطوفان إسلامي جديد.

---

(١) المصدر السابق (١٧: ١٥٢).

(٢) المصدر السابق (١٧: ١٧٢-١٨٥).

عود على بدءٍ مع السقوف المنهارة

يفتح المولود عينيه في كل عصر على واقع معين، وينشأ الطفل فيه، ويتعلم منه، ويتفاعـل معه، ويأكل من خيراته، ويموت ويقبر في طينه، وهذه - كما يقولون - « سنة الحيـاة » ؛ ولكنا إذا تجاوزنا الأمثلة الشعبية والضبابيات الرسمية، وارتقينا إلى مستوى الإسلام ذاته ؛ نجد أن هذه الرتابة المعبر عنها بـ «سنة الحياة» مركبةٌ في العقل الإنساني تركيباً خطأً، معنى وتطبيقاً، ولا علاقة للإسلام بها.

فالإسلام يضع قواعد الحياة، وسننها، وحاضرها، ومستقبلها، ويرسم سياسـتها، واقتصادها، وعلمها، وعملها، وليس للحياة المجردة سنة فاعلة في هذا العالم المحكـوم بحكم الله إلا بما شاء كيف شاء، وثقافة السقوف المنهارة تعتمد دائماً علـى تجسـيد شعار « سنة الحياة » ليعيش المخدوعون في دائرة الموافقة على الملاحـظ والمـألوف . وربما رفع المنسوبون إلى هذه الثقافة حالة الاستنفار عند شعورهم ليوهمـوهم أن كـل مخالفةٍ للمألوف والمعتاد تجاوز للدين ذاته، ومروق عن سنة الإسلام.

ولهذا احتكم الناس للقوانين الوضعية – طوعاً وكرهاً – وسادت الدساتير النظرية، وتخلت الشعوب المقهورة عن قواعد الإسلام وثوابته، وهكذا سارت **سـفينة الحيـاة بسننها الطبيعية** -كما يفسرها العلمانيون- إلى النتائج الحتمية، فعجلات التـاريخ لا تعود إلى الوراء أبداً.

لقد أصيب المسلمون في أعز مقدراتهم الشرعية وحقوقهم المرعية منذ سقوط دولة القرار، ومن ذلك العهد والمسلمون – قمةً وقاعدةً – يروضون ويتروضون على قبول سياسة التطويع والتطبيع؛ ليتفهم الكل –حاكماً ومحكوماً– معاني أسلمة الواقع، واستسلامية القواقع.

والحقيقةُ المرةُ – عند النظر والتحليل – تبين أن الواقع المستسلم لا يمت إلى الإسـلام الحق بصلة، ما عدا الانتساب الاسمي للإسلام، أو قُل: الالتزام بأدنى العلاقات الشـرعية وواجبها ومندو ا على الأفراد، والاشتغال ندسة فصولها وأبوا ا وواجبا ا، مـع طـول صراع ونقاش وتعليل وتحليل وحواش وتطويل ونـزاع مستميت حول مسـألة الحُجـة والدليل، وتلاعب بالأحكام في الحلال والحرام .

أما ما فوق ذلك فالصمت الحتمي قد أعمى البصر، وقصر النظر، وأخرس البلغـاء عن الإفصاح عما يدور أو ما قد عبر، واكتفى الحكماء بالصمت وكفـى؛ وماتـت الحقائق في رفوف الإهمال والنسيان.

والحقيقة تقول : إن التركيبات القديمة والجديدة في دائرة السقوف العربية الإسلامية –دون استثناء– من أَلِف الركائز، إلى ياء التعلـيم أو التعليـب سياسـةً واقتصـاداً واجتماعاً وتربيةً وتعليماً وثقافةً وإعلاماً وديانةً كلها قد ا ارت و ـاوت في أتـون المعركة العالمية، التي امتلك فيها البغاة العالميون زمام الحركة، ومصدر القرار.

ومن داخل الصياغات العالمية المنحرفة سيس المهندسون ألوان أعلامها، وكُتب إعلامهـا، ووجهوا أقلامها وأفلامها، ورسموا للأجيال المسلمة مستقبل أحلامها وبوادر إيلامها.

وكما سقطت دولة القرار في تركيا – قبيل الحرب العالمية الأولى – من خلال الهدم الداخلي في بنيان الدولة ؛ فقد ترسخ الهدم والدمار الاجتماعي بثمرات الحرب العالمية الثانية، وأعادت القوى الغاشمة – مالكة القرار، في العالم الإسلامي المنهار – صـياغة كل شيء، بدءاً من مساحة الأرض وحدودها، و اية بمعلم المدرسة ومديرها، وشيخ الناحية وأميرها، و « رب مصل لا أمانةَ له».

وهذا ما عبر عنه رسول الأمة – الذي لا ينطـق عـن الهـوى - في حديثـه :

« لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، كلما نقضت عروة تمسك الناس بـالتي تليهـا، أولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصلاة، ورب مصل لا أمانة له » .

ومن هذا المنطلق الواعي الذي لا مجال فيه للظلم ولا للإجحاف، كما لا مجال فيـه للمجاملة ولا للمكابرة ؛ يمكن القول بأن **السقوف السياسـية** في **العـالمين العـربي والإسلامي** – منذ سقوط دولة القرار العالمي في الإسلام – تعتبر سلسلة من ركـائز المنتفعين أو المندفعين، الذين خدعوا –أو انخدعوا- أو ساوموا بقضايا الإسلام، ورسموا مع العدو مسارب المصالح المشتركة بعلم أو بغير علم.

وكل ما نتج عن هذه **المراحل المضطربة** من تحولات ومواقف، وحدود محليـة أو دولية، أو قرارات أو إلزامات، وبرامج تعليم وتربية وثقافة وإعلام ومنجزات؛ كلها لا تتعدى كو ا خليطاً أو مركباً من تنازلات السقوف المنهارة عن ثوابت الدين والعقائد ومبادئ الشريعة، مع نفثات سموم السقوف الكافرة بالمعـارف، والعلـوم النظريـة، وحماس الوطنية والثورية، والتحرر مع امتلاك القرار، ورسم السياسة الاستسلامية في المنطقة المغلوبة على أمرها. ولم يبق في هذا الركام المتلاحق شيء سليم سوى النشاط الشعبي المتمثل بدور علماء المسلمين المستقلين عن التحولات السياسية، بـرغم مـا أصا م من الضعف والخمول.

إننا عندما نضطر إلى إعذار سقوفنا المنهارة عن تحمل تبعات العمالة للقوى العالمية ؛ فلابد أن نفهم المثل القائل : « ما لا يتحقق كله لا يترك جله »، فالعديد مـن هـذه الركائز مضطرة إلى العمل بسياسة الواقع لتنفيذ المصلحتين :

الأولى : خدمة الأمة المغلوبة، والسير ا في الواقع المغلوب على الكيفية المفروضة، على ما فيها من عرج وحرج وهرج، وما حيلة المضطر إلا ركو ا.

والثانية : الاستفادة من موقع القرار الكافر، ومصدر الحركة الذي لا بديل عنه في ظاهر الحال، وتحقيق مصالحه العالمية مقابل تحقيق نسبة من الاستقرار المادي والأمني لأمةٍ مغلوبةٍ على أمرها.

والخطر في هذه اللعبة الشائكة أن كثيراً من ركائز هذه السقوف، أوغل في الدفع بعجلة العمالة لتحقيق مصالح الكفار، حتى تآمر على الدين، والملة، والمصير الإسلامي ذاته مقابل المصالح الذاتية: ماديةً وسلطويةً، في المنطقة المنهوبة.

لقد شهدت مسارح الأحداث المتتالية خطر هذه العمالات على طول المساحة الإسلامية والعربية، وبرزت نماذج هذه المساومات جليةً واضحةً في الصومال، وجنوب اليمن سابقا، والعراق، والشام، وفي أنحاء متفرقة من بلاد العالم العربي والإسلامي، أدت إلى مسخ هوية الشعوب وتشريدها وتجزئتها وتدميرها، خدمةً للكفر والانحراف . وغداً – وليس ببعيد – ستقدم على هذه المذابح قرابين جديدة، وتبرز ركائز وسقوف عنيدة، لا يهمها في مسيرة العمل غير تحقيق المكاسب والمصالح، ولا ينفع معها - ولا منها - صائح خلف صائح، وهذه علة الانهيار المستمر.

التخدير العالمي وخلاصنا منه

كثيراً ما يعترض القراءُ على عرضنا للأحداث ومشاكل الواقع، ويقولون : إن مـا تكتبونه لا يحمل حلاً، وإنما يحمل تشخصياً فقط. وإذا ما نحن جارينا هـذا المطالـب العادلة، وطرحنا الحلول على الأوراق: هل يا ترى سنجد من يحمل هم الحركة وصنع المواقف ؟

إننا لن نتشاءم أبداً، فالإسلام دين التفاؤل ؛ ولكنا نعتقد أن وضع الحلول، في واقع معلول، حدثٌ سابق لأوانه [1]، فإن دورنا اليوم –على ما أعتقد، والله أعلم– هو تشخيص الواقـع،

---

(١) الواقع المعلول هيأ لكثير من المنظرين والمفكرين رسم سياسات الحلول، ومنهم من تنازل عن ثوابت الدين لإيجاد التوافق بين الحلال الإسلامي والحرام الكافر في المسـائل الاقتصـادية، فجاءت الولادات « الإسلامكفرية » في المصارف، والبنوك، والتأمينات، وعقود البيع والشراء المنحرفة، وتعطلت وظائف الزكاة الشرعية .

ومنهم من تقوقع تحت **دائرة مذهب أو جماعة،** فربط الحل الإسلامي بمبادئه، وطـرح رؤيته المحلية أو العالمية مقرونة بنظام دولة، أو فقه جماعة .

ومنهم من رسم الحل الأخير بفوهات البنادق، وقتل الزعماء، وضرب مصالح الكفار في العالم، وقد يضطر في أتون الحركة ذا ا إلى لبس الأقنعة، وتمويه الألوان، فيندرج تحت مظلته المهندسون العالميون، ويحبطون الأمة كلها من داخل الفشل ا هض، والحماس المروض، وأمثلة هذا كثيرة وكثيرة.

إننا لا نتحدث عن الحلول، والمعالجات الجذرية، ولكننا نبدأ في محاولة العمل لأجل الحل، ولأن المعالجة ذا ا صعبة للغاية فإننا نبارك كل حركة تنطلق في مسيرة العمـل الإسـلامي – صامتة، أو متحركة – على طريق تنشيط العقول، وترشيد الحائرين إلى طريق الحلول، ولا نسلم لأحد يتحرك في محيط العالم أنه يحمل الحل الجذري.

وفك العقد التي رصدها المهندسون العالميون، وقولنا هذا يعني أن كثيراً من المسلمين يعتقدون سلامةَ الواقع المعاش، ولا يرون في طرحنا قيمةً تذكر، ذاك لأن مدركاتهم المعرفية تجـول في فلك المعتاد، وقد استطاع مهندسو الحركة العالمية تخدير عقول الكثير والكثير، كل يدور في فلك الرؤية الواقعية وحدها، بل وضعوا من خلالها حلولاً غريبة، ومعالجاتٍ مريبة، ويصـبح دورنا الآن فك هذه العقدة، ورفع مادة التخدير الموضعي حتى يستفيق المسلمون، سـواء في قمة الواقع أو في قاعدته، وسيكون أول ما تصل إليه أحاسيس الجميع هي إدراكهم مرحلـة التخدير، وأنهم فعلاً كانوا تحت تأثير عقار أجنبي مركّز.. وهذا مطلبنا..

وإذا ما تضافرت عقول المسلمين عند الإدراك، وهم في بداية وعـيهم للحقـائق والظروف ؛ عندها تطرح الحلول، أو بعبارة أصح: ستفْرِض الحلولُ نفسها بنفسـها؛ لأن الله يقول في كتابه: ﴿إِنّ الله لا يغير ما بِقَومٍ حتى يغيروا ما بأَنفُسِهِم وإذا أَراد الله بقَومٍ سوءً فلا مرد لَه وما لَهم مِن دونِهِ مِن والٍ﴾ [الرعد: ١١].

فالحل الجذري قادم، وعلى كل متحرك وساكن داخل السقوف، أو خارجها أن يعمل جاهداً على إزالة آثار المخدر الكافر، في الباطن والظاهر، وأن يرحم الجهـلاء والغـافلين، والمرضى والمغررين والمخدوعين، والبسطاء والسذج . وسيأتي يوم الخلاص؛ ولكن بشرطه، وشرطه الأول أن لا نتعجل الحلول قبل تشخيص الأمراض، ولا نكذب على الناس بالعلاج قبل معرفة موطن الداء من الجسد المتداعي.

فكثير ممن حمل لواء المسيرة للعلاج الناجع معتمدا على الحماس والغيرة وحدها ؛ وقع في الأفخاخ المنصوبة ، وهوى بمبادئه القاصرة في أتون المعارك المبرمجة الدائرة ، وزاد الأمة إحباطا فوق إحباطها ، ويأسا في اكتشاف الدواء الناجع القادر على تخليص الأمة تخليصا أبديا.

وأما الدواء في حقيقته - لو أردنا حقيقته – فموجود منذ بروز دعوة الإسلام على يـد محمد خير الأنام عليه الصلاة والسلام.

الاستعمار وسياسة السم في الدسم

إن عمق مشكلة الأمة الإسلامية في المرحلة المعاصرة غياب الـوعي الثابـت عـن الإسلام وجدارته العالمية كمعادل راجح فكرا وسياسة واقتصادا ودينا ودنيا أمام كافة النظريات والأطروحات في العالم .

وإذا ما افترضنا أن هناك من يدرك هذه المسألة من المسلمين فإن الانسلاخ المتلاحق في جسد الأمة قد جعل الإفصاح لا يتجاوز الشفتين ، وإن تجاوزها فالقلق والخـوف يشوب الجميع ويدمر أعماق الجميع ، وقد أَمِن الكافر غائلةَ العقول المسلمة، بعد أن روضها على قبول الأمر الواقع ، ولهذا نجد المهندسين الغربيين يتفننون في التعبير الواثق ضد الإسلام.

كتب البارون دشتور نيل دوكونستانبت : إن دور الضابط أو القائـد هـو أن يتكفـل بسحق أي قوة إسلامية، وإن الذي يأخذ على عاتقه تحطيم المسلمين سيكون أنبل الرجـال وأعظمهم فائدة، بل إنه الرجل الذي يستطيع أن يلعب الدور الكبير من أجل بلاده[1] .

وتحت هذه المبادئ كان الاستعمار يعمل ويناضل بأساليب مختلفة، ويمكن معرفـة نموذجين خطيرين منها في سياسة بريطانيا وإيطاليا . وكان المفكرون السياسـيون في كلا الدولتين على يقين بتحقيق الهدف الواحد من خلال اختلاف الأدوار المطبقـة في العالم الإسلامي والعربي.

كتب جاكوب البريطاني عن سياسة دولته في نظر الآخرين : كتب عنـا فرنسـي

---

(١) المصدر السابق ص١٦٣ .

قائلاً : سوف لن يفرض الإنجليز لغتهم ولا مدنيتـهم أو حضـارتهم بـالقوة علـى محمياتهم. إنهم يتسللون ويثبتون وجودهم -على أكثر تقدير- بطريقة سليمة وأسلوب بطيء وبتردد وارتياب، يحترمون العادات والنظم الوطنية والقومية مختفين وراء أساليب أخرى، يوجهون بها البلاد إلى طريقة جديدة، تبدو وكأنها من فعل السكان أنفسهم، وبأنهم اعتنقوها بمحض إرادتهم واختيارهم، وهذه سوف تؤدي إلى محـو الأسـاليب السيئة القديمة، وإزالة أثر التقاليد البالية التي يعاني الناس من وطأتها .

ثم يقول: والرجل الإنجليزي لين وسيط في علاقته مع الناس لدرجة أنه لا يسـتثير كراهيتهم، ولا يستفز غيرتهم وحماسهم، واختلاطه بهم قليل لدرجة أنهم لا يتضايقون من حضوره [١] .

وكتب عن الإيطاليين : إن الإيطاليين يتصرفون بحذر شـديد، واهتمـام كـبير، وحرص زائد حتى لا يمسوا العاطفة الإسلامية، ويجرحوا أحاسيس المسلمين[٢].

ويقول في نفس المصدر: والحضارة الإيطالية في إرتريا تسـعى إلى جعـل النـاس إيطاليين، وتعمل على « طَلْينتِهم »[٣] في الفكر واللغة والعادات واللباس، ومن المحتمل أن يكون الإيطاليون مستعمرين ممتازين، ومع هذا أقول بفخـر يشـوبه التعصـب والتحفز: إنهم يأتون في المرتبة الثانية بعدنا.

ثم نقل الكاتب جاكوب عن أحد المؤلفين في كتاب « أبحاث في السياسة والاسـتعمار »، والذي قارن فيه بين وجهات النظر عند الفرنسيين والإنجليز نحو الإسـلام والمسـلمين في

---

(١) المصدر السابق ص١٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص١٦٣ .

(٣) أي: جعلهم إيطاليين .

المستعمرات الخاصة م، وفضل الدور الذي يقوم به الفرنسيون ؛ لأ م يعارضون انتشـار الإسلام، ويحاولون أن يغرسوا في الأذهان الأفكار الفرنسية، والثقافة الفرنسـية، وأن هـذه الطريقة تفضي إلى ائتلاف العناصر المختلفة، ودمجها في قومية واحـدة ملحقـة بالأفكـار والمعارف الفرنسية.

بينما صور الكاتب الأسلوب الإنجليزي بأنه عبارة عن ترك الحكم الذاتي للشـعوب والأقاليم التي تحت إشرافهم، وللوطنيين من أبناء البلاد تحت مراقبتهم، مـع مـنحهم الحرية ممارسة الشعائر الدينية، والتكلم كما يريدون، و دوء [1] .

---

(١) المصدر السابق ص١٦٤ .

رحلة مجانية مع السقوف المتمرحلة

من عجيب ما تفرزه المراحل وتبديه الأيام وحدةُ الثمراتِ والأهداف التي يجتمع في سبيلها الأضداد، وهي أيضا وحدة العمل والوظيفة من قبل ؛ ولو كانت هذه الأعمال والوظائف صراعاً بين فريقين متنازعين.

فالمستعمرون الغربيون والشرقيون في المراحل السابقة نجدهم في الإطار العالمي مثلوا صراعا سياسيا محتدما فيما بينهم ، أدى إلى استعمال ما يسمى بـ الحرب البـاردة ، والحرب الباردة بين قوتين غالبا ما يكون ضحيتها طرف ثالث ، والطـرف الثالـث دويلات مستعمرة أو حدود مقسمة بين دولتين تحت ضوابط سياسة المتاجرة .

وفي كل الأحوال يكون المستثمر لهذه الصراعات هي القوى الاسـتعمارية ذا ـا، سواء بالهيمنة السياسية أو بتسويق المعدات العسكرية وضمان الأسواق التجارية و ب الثروات المحلية ، ومع كل مرحلة من مراحل التقلبات الاستعمارية والاستثمارية ترى الأرتال والجماعات من «ضحايا المراحل وسماسرة المصالح» مسلمين وغير مسـلمين يعملون بجدية وحماس ، ما بين متسلق منتفع ، ومتملق مندفع، يسـتحلب أحـدهم أدوار المرحلة ولا يلتفت إلى الأخطار المحققة ضد الإسلام كـدين ، أو ضـد الأمـة ومصالحها المحلية والعالمية .

بل ويراهن أحدهم بالدين كله والوطن ومقدراته ليرضى عنـه سماسـرة المرحلـة العالميون ، حتى إذا ما انتهت فترة العمل المسرحي واجتنى المستعمرون ثمار سياسـتهم الخطيرة ؛ أعادوا ترتيب الأوضاع المحلية بتجهيز ضحايا جديدة ، وضحوا بسماسر م القدماء حينا ، وحينا بضمان مسيرة حيا م الباقية في دول أو أنظمة أخرى تسـير في

الفلك الاستعماري والاستثماري ذاته.

ولقد شهدت بلاد اليمن -كمثال- نماذج متنوعةً من سقوف السياسة ومصادر الحركـة منذ عهد الاستعمار حتى عهد الاستثمار، والملاحظ أن هذه الفئات مع سـقوفها تتصـارع وتتقاتل في مسرح الأحداث، ويفتك البعض بالبعض، ويشتم البعض البعض الآخر، ويتطور الأمر إلى الصحف والبيانات والمحاكمات واستخدام الشعارات، ثم إذا تجاوز هؤلاء حـدود مسرح الأحداث وانتقل أحدهم في مرحلة ما إلى خارج الوطن ثم انتقـل الآخـرون مـن الوطن في ظروف معينة إلى خارج الحدود ؛ صار الجميع في غالـب الأحيـان يتمتعـون بامتيازات لا تتعدى المناطق والسقوف التي كانوا يحاربو ا جميعا، وربما ائتلفوا معـا ضـد غيرهم، بل حتى الإمبريالية ذا ا وقد شهدت ألسنتهم محاربتها في أجهزة الإعلام تصير وبغير مقدمات حاضنة الأبناء جميعاً، والقائمة على ترتيب أوضاعهم في المهاجر.

إن المنطقة الإسلامية والعربية تعيش مرحلة خداع خطيرة تشبه إلى حد كبير مرحلة الصراع بين الشرق والغرب، والمسؤولون عن سياسة السقوف هم المعنيون بـالأمر، والضحية في الحاضر والمستقبل هم المسلمون، والمزاد العلني في العالم يراهن بالإسـلام ويشعل أعواد الثقاب من داخله وبأيدي أبنائه .

وليست في الإسلام علة، ولا فيما اختلف فيه علماء الملة، إنما العلـة في السـقوف وفيمن تضعه القوى المحركة لحمل ودعم هذه السـقوف، فتحـت الرمـاد نـار، والسماسرة يصبون عليها وقود البترول لتزيد اشتعالا.

فمن الذي يحمل الماء والتراب لإخمادها ؟؟..

السقوف والصحوة

قُبيلَ فَجرِ الصحوةِ وسقوطِ دولةِ الشيوعيةِ العالميةِ في روسيا كان العالم كله قد دخـل إلى طورٍ جديدٍ من العلاقات، وبدأت تبرز في الأفق ملامح الإسلام وعودةُ أثره وتـأثيره، وتمثلَ ذلك بنجاح الثورة الأفغانية أمام أعداء الإسلام من الشيوعية وعناصـر الإلحـاد، وشعرت قوى التأثير في العالم أن الإسلام يهدد مصالح الكفر وسياسته في العالم، فأخـذ يرتب من جديد مسألة السقوف السياسية ومصدر الحركة.

فكان الدور الأول سحب البساط من الشيوعية العالمية، وتفكيك الاتحاد السـوفييتي إلى دويلات، وإعادة تركيب السقوف السياسية وبرامجها في المنطقة العربية والإسلامية، وإبراز مسمى الديمقراطية كبديل سياسي للمرحلة، وسقف عالمي ينطوي تحت شـعاراته كافـة الطامحين في امتلاك القرار والصعود إلى مصدر الحركة، وافتعلت في المنطقة العربية قضـية الخليج لتصبح مصدراً من مصادر تثبيت القوى العالمية في المنطقة، ونجحت كافـة الأدوار المبرمجة لهذه اللعبة العالمية وليس هنا موقع تفصيلها.

وبدأ الوطن العربي يهيئ نفسه من خلال رموزه لاستيعاب مفهـوم الديمقراطيـة، وصارت نماذج الديمقراطية في بعض الدول عامل ضغط على دول أخـرى لتحويـل مسار السقوف فيها نحو جحر الضب بصورة أكثر اختصارا مما هي فيه وعليه .

ولقد استجابت هذه الرموز ولابد لها أن تستجيب فليس هناك في الأفق شيء غـير الواقع والتعامل معه بما يلائم المرحلة ويرضي ركائز السقوف العالمية. ولا شيء أيضا لدى سقوف المنطقة الإسلامية والعربية من تماسكٍ يجمعها بقرارٍ حاسمٍ أمـام قـرار الكافر الأكثر حسماً وتأثيراً على صنعائه ورموزه سوى ما نسمعه ونراه ونعايشه من

عجائب الإحباط ومسرحيات الانخراط.

إن لعبة الحكم هي أخطر عروة تكلم عنها رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسـلم وكشف علتها في الواقع، بل تناولها القرآن العظيم في مواقع شتى مخبراً عن حال الأمم السابقة التي غرقت في لجة الضلال والتكذيب، فحق القول عليها فدمرت نفسها. قال تعالى: وإذا أردنا أنْ نهلك قَريةً أمرنا مترفيها ففَسقُوا فيها فحـق علَيهـا القَـولُ فدمرناها تدمِيرا [الإسراء: ١٦] .

والتدمير من أسبابه فشل الإنسان أن يرتقي إلى ما طلبه منه الملـك الـديان ؛ لأن الا يارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العالم ثمرةٌ من ثمرات المفهوم العقلاني الإنساني، ورفض المنهج الرباني الرحماني، وأياً كان حجم الأنظمة الحامية للشـعارات النظرية فإ ا سرعان ما تنهار كما تنهار مبادئها في لحظة من لحظات المسيرة الهوجـاء العوجاء.

والإقناع أو الاقتناع في قبول ما يقوله أو ما أراده الحق سبحانه في الحياة أمر في غاية الصعوبة أو هو من المستحيلات ؛ لأن تيار الحياة المسيس قد سار بالأزمة كلـها إلى مفهوم النظريات المطروحة، وما على المفكرين والعلماء والبـاحثين إذا أرادوا الحيـاة بأمان إلا أن يقيسوا على هذه النظريات الشوهاء قُمصاً وجلابيب وألبسةً من القـرآن والسنة والتاريخ والسير، حتى يقتنع الدهماء أو يخُدعون للمرة الألف وزيادة، للتعامـل مع اللعبة المحلية والعالمية.. وهكذا دواليك.

العقل العربي الإسلامي تحت ظل السقوف الاستعمارية

من المضحك المبكي في تاريخ علاقة الوطن العربي بالدول الاستعمارية وسقوفها المحلية المنهارة ما سجلته أقلام المستشرقين تهكماً وتشفياً من الإسلام والمسلمين، حيث كان الكافر يعلم علم اليقين أن تعامله مع هذه الشرائح لا يمثل مسألة انتفاع وباب صداقة كما كان يظن ذلك حكام وعملاءُ هذه المراحل، ويضحكون به على شعو م.

وإنما كان الكافر يعتبر ذلك فتحا ونصرا للمبدأ الكافر على العقل المسلم الذي يعامل الحياة بالسطحية والسذاجة . فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد كتاب « ملوك شبه الجزيرة العربية » لمؤلفه هارولد جاكوب مشحوناً ذه السخريات و « القفشات » التي يعتبرها المؤلف في كتابه **انتصارا للعقل الكافر وترويضا للعقل المسلم.**

فقد تحدث في ص ٢٠٩ عن الحرب العالمية ودور عدن في نصرة الإنكليز فيقول: وعند إعلان المانيا الحرب أُقيمت الصلوات وقدمت الابتهالات في جميع المساجد العدنية من أجل إنجاح الجيوش البريطانية، وكان ترجيع صدى الترانيم والأدعية في كل أرجاء المستعمرة هكذا : يا قوي يا عزيز.. أهلك الجرمان وانصر الإنكليز .

ولم يقف التهكم عند هذا الحد بل تعداه إلى أصحاب المراتب الاجتماعية الذين استغلت طيبتهم وسذاجتهم وضعف مدركا م الفكرية كمنصب العيدروس بعدن فنراه يقول عنه ص ٢٠٩: والسيد العيدروس منصب عدن وشريفها وزعيمها الديني استنكر دخول تركيا الحرب، وأكبره، وعبر عن شديد أسفه قائلا: نحن أعظم المخلصين لبريطانيا، ولا نزال أوفياء لها من بين جميع الأصدقاء منذ احتلالها لعدن عام ١٨٣٩م، وإننا ندعو لبريطانيا بالنصر ؛ لأ ا

أحسن الحكومات، وأكثرها عدلا، وهي التي تعمل دائما من أجل قضية الإسلام.

إن هذه العبارات لو صحت من صاحب مقام رفيع ينتسب إلى آل البيت النبوي ويمثـل واجهة روحية في عدن لأكبر دليل على تذويب الغربيين للعقل الإسـلامي في المنطقـة، وإقحامه ضمن برنامجها العسكري، وتحويل المفـاهيم الإسـلامية لقبـول آراء الكفـر والكافرين، ونجاح الغزو الاستعماري في اجتذاب المسلمين بالمال والمراتب الاجتماعيـة، والوقوف علناً ضد تركيا صاحبه القرار الاسلامي العالمي(١).

وهاهو المؤلف يقدم نموذجاً آخر من سخريته القلمية ضد العقل العربي فيقـول : بقِيـت عدن مخلصةً لنا أثناء الحرب في حين أن تعاليم الدين في جملتها ترشدهم بأن يدعوا للخليفـة التركي بالرفاهية والتوفيق، ولعل حكمنا في عدن مدة خمسة وسبعين عاما قد طبـع النـاس على الثقة الحسنة فينا وأجبرهم على الإيمان بحسن نيتنا.

ولم يقف أمر التهكم والسخرية على عرب ومسلمي عدن، بل تعداه إلى ما لاحظه من سطحيةٍ من بعض المنسوبين لدولة تركيا الإسلامية، الذين عكس المؤلف صـورةً من مخادعاته لهم والحصول على تسهيلات رسمية للعمل في صنعاء، إذ كانت مهمتـه المُعلَنة العمل في صنعاء لإيجاد ائتلاف بين طرفي النـزاع « الأتراك و الإدريسـي »، وتقريب وجهات النظر على حد تعبيره، وقال عن هذه الخطة الخبيثة التي كان يبيـت من خلالها سياسة دولته ص١٩٢ : وعند ذلك نستطيع إقناع العالم الإسلامي قاطبـة

---

(١) لأن المؤلف ذاته تكلم عن منصب العيدروس عام ١٢٥٦ هـ فقال: وما أكبر الفرق وأبعد الاختلاف بين العيدروس اليوم وبين سلفه الذي كان موجودا عام ١٨٤٠ م، فهو الذي ا م هِنس باطلاً بالرغبة في تحطيم الإسلام، وهدد بالذهاب إلى القائد المغربي الذي كان موجودا حين ذاك بصنعاء .

بأننا من الأصدقاء المخلصين للمسلمين.

كما أشار عن تنفيذ خطته من داخل بريطانيا بقوله: تقدمت إلى السفارة التركية في لندن عارضاً خدماتي لتركيا في تلك البلاد، وكان السفير أكثر فرحا واستبشارا، وقد أعطاني توصيةً خطيةً موجهةً إلى مركز الإدارة في صنعاء، وكان يوجد عيب واحـد في تلك الرسالة اكتشفته فيما بعد بعدة شهور، وهو وصفي فيها كمسلم وكشخص نافع ومفيد، وبصورة خاصة لأهداف الأتراك في اليمن(١)! ثم قال المؤلف: فهل كـان هذا تصوراً خاطئاً في مذهبٍ ووهمٍ مغلوطٍ في عقيدتي أم أنه إبرةٌ في ذنب العقرب؟

وبنفس الأسلوب الملتوي يعبر المؤلف عن حقيقة سياسة الكافر ولكن على لسان العرب فيقول: لقد نسب بعض العرب الحقد المستحكم بين « الإمام والإدريسي » والضغينة التي كانت قائمةً بينهما إلى الدسائس البريطانية، وقالوا: إن سياسة حكومتنا تعمل على نصبٍ واحدٍ وخفْضٍ آخر وبأننا نصدِم رأساً برأسٍ.

ثم يصف دولته ومكر سياستهم بعد أن استهزأ على طريقته بسلطان لحج الذي نقل عنه أنه قال: من الأفضل للعرب أن ينظروا في مصالحهم، كمـا أن علـيهم أن يفكـروا في مشاكلهم . فعلق على هذه العبارة قائلا: وإذا كنا نحتفظ بأي فكرة لاحتلال اليمن فـإن السير أحمد سوف يكون مسرورا لمساعدتنا. ثم كتب وقال: وما أبسط أصدقائنا الأكثـر طِيبة ! إ م يؤمنون بسرعة وبسهولة في إنكارنا للتوسع الذاتي ونفينا للتـدخل المباشـر أو للسعي من جانبنا لاحتلال بلاد الغير! وهذا هو دهاء إنجلترا ومكر الإنكليز.

(١) لاحظ معي هذا الخبث المبطن، حيث لا يتصور أن يكتب السفير عن البريطاني أنه مسلم وثقة إلا بعد أن استطاع المؤلف خداع السفير وتقديم نفسه له بشيء مما ذكره؛ إلا إذا قلنـا: إن السفير له أيضا دور في العملية وكان يعمل في الخفاء ضد الإسلام ودولته آنذاك.

وكتب جاكوب ص١٨٥: وكان المشايخ والسلاطين الذين يحصلون منا على المرتبـات، يملكون أختاماً زودناهم ا، وبتلك الأختام يبصمون على رسائل التوجيه والاعتمـاد الـتي يعطو ا لرجال قبائلهم الذين يأتون لمقابلة المقيم البريطاني في عـدن، أو يحضـرون لرؤيتـه وزيارته، وقد حدث أن الشريف أحمد العجوز رهن ختمه من جار محتاج لمدة مـن الـزمن مقابل مبلغ من المال مقداره ألف ريال، وقد لاحظ الزيادة الكبيرة في عدد أولئـك الـذين وصلوا عدن، ونـزلوا في المرتفعات النائية من أجل الحصول على هباتنا ومساعداتنا الماليـة، وفي إحدى الزيارات أخبرني الشريف بصراحة ودون خجل على هذه الصفقة، وطلب مـني عدم اعتماد الخطابات التي تحمل ختمه القديم أو تكريرها بعد الآن؛ لأن العقد انتهى، وقـد صنع لنفسه ختماً آخر، وهو الذي يجب علينا أن نعترف به، ونقبله في المسـتقبل، وكـان اليهود يصنعون الأختام، ويتاجرون ا.

وفي ص١٩١ كتب يقول : والسيد أحمد سلطان لحج كما يقول بالكون : عنـده حكمة التماسيح التي تذرف الدمع عندما تشتهي أكل الفريسـة، أو كمـا يقـول القرآن: يقُولُونَ بِأَفْواهِهِم ما لَيس في قُلُوبِهِم [آل عمران: ١٦٧] .

وكتب جاكوب ص٢٣٥ عن الزعماء العرب : فجميع أولئك الثيران العرب رغبوا في اختفاء الأتراك وزملائهم في الإسلام وإخوا م في الدين والعقيدة، نعم إ م كـانوا كذلك، حتى الإمام المحايد ؛ لكنهم شعروا جميعاً بالأمر الـذي يبيتـه لهـم الأسـد البريطاني، أو بما يبطنه لهم من أهداف خفية .

وقال عن الإدريسي : وكان الإدريسي – في بداية الأمر – يستقبل ضيوفه في الغسق فقط، وبعد أن يرخي الليل سدوله، وقد سخرت من هذا الأسلوب عندما وصلنا إلى جيزان، ونـزلنا

إلى البر ليلاً كاللصوص، وبرر موقفه قائلاً أنه يتحتم عليه التزلف لرجال قبائله مراعاة لهـم[1].. وعندما كان واحد من رجال قبائل هذا الميناء يتناقش مع جمع من الناس عن الحكومة البريطانية قال : إذا ذهبت بريطانيا – لا سمح الله – فاعلموا أيها الإخوان بأن العدل قد ذهب.

وقال عن الفضلي والعولقي ص٢٤٦: ولقد استدعيت الفضلي، وأرسلت في طلبه من أجل أن أصبح قادراً بعد ذلك على التزود بحاصلات بلاده، ومصادر ثرو ا، ومواردها الأخرى، ولقـد حصلت فعلاً على معظم السلع التموينية والمواد الغذائية من أبين وشقرة - وكلتاهمـا في بـلاد الفضلي- ثم من أحور في العوالق السفلى، ومن أماكن أخرى كذلك أكثر بعداً مثل المكلا[2].

وقال عن الواحدي : وتحدثنا عن استعمال الألمان للغاز السام، وقد سـأل صـديقي الواحدي : لماذا لم نستعمل مثل ذلك ؟ فقلت له : إن الإنكليز لا ينحـدرون إلى هـذه الأعمال الشيطانية. فابتسم وقال: الحرب خداع. واقترح أن نقضـي بإرسـال رسـول موثوق به يدفع السم في قهوة الباشا، وأردف قائلاً: إنني إذا لم أفعل هذا الشـيء فإنـه –أي الباشا- سيفعل معي مثل ذلك في وقت ما. ولقد عاتبت السلطان الـذي ضـحك بإفراط وبغير اعتدال ثم قال : جميع العرب كلاب، وأنا نفسي شخص عربي [3] .

وقال ص٢٥٧ عن قائد تركي -يمثل دولة الإسلام- : وصل أولئك الضباط عنـد الوقت المحدد لأداة صلاة المغرب تماماً، فطلبت إليهم القيام بتقديم صلا م، وبعد ذلك نتحدث عن الأطعمة والمأكولات، وكان قائد ا موعة الرائد أركان حرب بدر الدين ضابطاً مرحاً، قال مجيباً على التماسي : أنا أعرف بأن الرسول قد حدد لنا الصلوات،

---

(١) « ملوك شبه الجزيرة العربية » للمستشرق الروسي هارولد جاكوب ص٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص٢٤٦ .

(٣) المصدر السابق ص٢٥١ .

ورسمها، وبأن كل فريضة من فرائض الصلاة موعدها الثابت، ووقتها المعين؛ ولكـنني شخصياً أفضل الكونياك، ولذلك حصل على كونياكه فوراً، وحذا حذوه شـخص آخر، بينما انسحب الباقون لأداء الصلاة .

وجاء في كتاب « لورنس لغز الجزيرة العربية.. » ص٢٧٦ عن الشريف الحسين بن علي : وثمة عمل آخر قام به الشريف حسين بن علي يبعث على الدهشة، إذ إنه بعد وصـوله إلى قبرص منح من قبل الحكومة البريطانية وسام الصليب الكبير، وهو نفس الوسام الذي رفضه لورانس من مليكه احتجاجا على خيانة بريطانيا لتعهدا ا للشريف.

والغريب أن الشريف قبل الوسام من يد لونا روستورز الذي كان يشـغل عندئـذ منصب حاكم جزيرة قبرص، والذي كان خادما للورنس طـوال الثـورة العربيـة، والمحرض الرئيسي لبريطانيا على التخلي عن تعهدا ا بالنسبة للحركة العربية.

وورد أيضا في ص٢٨٦ من الكتاب ذاته سخرية أخرى من موقف الأمير عبدالله بن الحسين أمام بريطانيا، قال: وصلت أنباء في شهر كانون الثـاني سـنة ١٩٢١ م إلى الإدارة البريطانية في فلسطين تفيد بأن الأمير عبدالله قد استقال من منصـبه كـوزير لخارجية والده في الحجاز، وترأس قوة من ألفي محارب، واتجه م إلى دمشق لطـرد الفرنسيين والاستيلاء على سوريا وجعلها مملكة خاصة به، ولكي يصل إلى هدفه كان عليه أن يمر بشرقي الأردن، وأسرع كير كبرايد الذي كان يحكم المنطقة يطلب مـن رؤسائه في القدس، وكان جواب القدس غير مشجع، إذ جاء فيه : إن الأمير على مـا يبدو لن يقوم بمثل هذه المحاولة لغزو سوريا، ولما كانت قوات الأمير على مسيرة يوم واحد من عمان فقد قرر كير كبرايد أن ينفذ القانون بنفسه، وأن يمنح عبدالله معاملة دبلوماسية، وخرج لملاقاة الأمير، ولما التقيا رحب به باسم الإدارة البريطانية.

وسر عبدالله من هذا اللقاء ولم يستغربه، ودعا إلى وقف الزحف على سوريا، ولما انعقد مؤتمر القاهرة أعلن نفسه أميرا على شرقي الأردن، وكان من أسهل الأمــور بالنســبة إلى تشرشل ومستشاريه أن يقبل بحقيقة الأمر الواقع هذا، ولكنهم وضعوا شرطين اثنين فقط: الأول يقضي بأن يعترف الأمير بالانتداب البريطاني على جميع فلسطين غربي ــر الأردن، والثاني هو أن يتخلى عن أطماعه ونياته في غزو سوريا، وقبل عبدالله الشرطين دون تردد، وهكذا سويت مشكلة شرقي الأردن بسهولة[1].

---

(١) المصدر السابق ص٢٨٦.

مجال الهدم للإسلام

إن مسألة التنفيذ الطوعي لسياسة السقوف الاستعمارية أدى إلى إنجاح كافة خطط الصليبية واليهودية في عالمنا المغلوب منذ عهد الغزو الاستعماري بعد الحرب العالميـة وقبلها .

ولعل ضحايا المجتمع المعاصر في أوطاننا الممسوخة يسخرون كثيرا من أشـباهنا وأمثالنا المشتغلين بقضية الدين، والحديث عنه في الأوساط والمؤلفات ؛ ولكننا نعلـم علم اليقين أن سقوف الفعل المؤثر ليست من صـنف هـذه الضـحايا المخدوعـة، فالمخدوعون دائما هم الأغبياء، والغبي الذي فطر على الغباء معذور كـل العـذر ؛ ولكن الحجة قائمة على أهل الغباء المركب الذين سلخهم برنامج الحضـارة المزيفـة ليكونوا من صنف آلات الحضارة، وفي ذات الوقت لا يريدون أن يفيقوا من مخدراتها.

إن العقول المعادية للإسلام أرهقَت قُدراتِها في سبيل صناعة المسلم المنـهار، بينمـا الإسلام – برغم ما يقال عنه عند مخدوعي المراحل- هو في رأينا الكفيـل الوحيـد بإعادة صياغة الإنسان.

واليوم ونحن في غاية الإحباط نعاني من وطأة البرامج المرسومة قمةً وقاعدةً، لا يسعنا إلا أن نمضي في كشف ثغرات الكذب والإفك، ليتعرف الراغبون منا موقع الجـرح النازف، ويرون حجم الخطر الذي قد استشرى في الواقع المخذول.

قال المستشرق صموئيل زويمر في مؤتمر القدس التبشيري الذي انعقد في شهر نيسان عام ١٩٣٥م إبان الاحتلال البريطاني لفلسطين مخاطبا أعضاء المؤتمر:

إنكم أعددتم شبابا في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها.. أخـرجتم

المسلم من الإسلام ولم تدخلوه المسيحية.. وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أراده له الاستعمار.. لا يهتم للعظائم ويحب الراحة والكسل.. لا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات.. فإذا تعلم فللشهوات.. وإذا جمع المال فللشهوات.. وإذا تبوأ أسمى المراكز فللشهوات.. ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء.

إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه، وانتهيتم إلى خير النتائج، وباركتكُم المسيحيةُ، ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم، فقلد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب [1].

هكذا كان عام ١٩٣٥م، وإنه لعهد بعيد لو نظرنا إلى ما حل بمجتمعاتنا بعد ذلك من تحولات السقوف المنهارة، وما أفرزه هذا التحول تحت ظلها من مخططات الكفر والإلحاد. ولكي يدرك المتبصر حقيقة الحال فليقرأ معي مقالة المستشرق جِب وهو يتحدث عن مجتمعاتنا المنهارة :

لقد فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً، حتى انحصرت في طقوسٍ محددةٍ، وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً من غير وعيٍ وانتباه، وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه؛ لكن نجاح هذا التطور يتوقف إلى حد بعيد على **القادة والزعماء** في **العالم الإسلامي، وعلى الشباب منهم خاصة**. كل ذلك كان نتيجة النشاط التعليمي والثقافي العلماني .

والنشاط التعليمي في عالمنا العربي والإسلامي على النمط الغربي قد انتشر وتفشى حتى طغى على كافة الأساليب التعليمية التقليدية المنسوبة للمدرسة الإسلامية ، وكان

---

(١) « غزو في الصميم » لعبد الرحمن حبنكة ص٢٧ - ٢٨ .

هو المحور والركيزة الأساسية التي اعتمد ا السقوف الغربية لخلخلة الواقع المسلم.

كتب المبشر تكلي: يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني؛ لأن كثيرا من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينمـا درسـوا الكتـب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية .

وقد سارت هذه العملية سيرا حثيثا على مدى التاريخ الاستعماري حتى تمكنت من تخريج الجيل المهجن ، وتجهيز جنود وجماهير الاستسلام المبطّن[١].

(١) المصدر السابق.

مربط الفرس

إننا نرى من خلال هذه السحب القاتمة التي فرضتها الخطط الاستشراقية بواسطة السقوف المحلية والعالمية في أفقنا الإسلامي المعاصر نرى ظلمةً معتمةً، وكل ثمرة برزت في الظلام يجب التعامل معها بحذر ولو كانت من دعوات الصحوة الإسلامية المعاصرة.

إن الانطلاقة الإسلامية المعاصرة تكاد لا تخلو في كثير من نماذجها من نسائج هذه الشباك والأحابيل المنصوبة المندرجة تحت خدمة الكافر بعلم وبغير علم. وهذا أمر يقيني ومؤكـد، ومكمن الخطر القادم ينطلق منه وينفذ إلى القلب الإسلامي من داخله.

والمخرج الذي نراه في طريقنا المحدود ضمن الواقع المكدود، هو إعادة النظر في مسـألة السقوف التربوية والتعليمية والدعوية، والزج الواعي بجيل الصـحوة المعتـدل وشـباب الدعوة في هذا الإطار لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في طوفان المعركة الباترة، وإقنـاع المنـدفعين والمتهورين من شبابٍ وفئاتٍ وقادةٍ بالحكمة وحسن المحاورة، كي يدركوا حجم الخطـر الذي يواجهه كيانهم الروحي وحاضرهم ومستقبلهم الديني والدنيوي.

فالمستشرقون الخبثاء قد وصلوا مع سقوفهم السياسية والتبشيرية إلى عمق الإنسـان المسلم من خلال التغلغل في الأطر السياسية والاقتصـادية والاجتماعيـة والتربويـة والتعليمية والإعلامية والثقافية، وفي الديانة من خلال خداع الحكام البسطاء وإغرائهم بالمال والجاه والمواقع الاجتماعية والاتكاء الانفعالي على البرامج الاستعمارية العالمية في الأمة.

ولتأكيد هذا المبدأ الخطير نقرأ مقولة المستشرق زويمر عام ١٩٣٥م في مؤتمر القدس:

لقد قضينا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشـر إلى

يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلـك الربـوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي ـيمن عليهـا الدول الأوروبية والأمريكية. والفضل إليكم وحدكم أيها الزملاء، إنكم أعددتم لـه بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد[1].

ويبدو أن التحولات المتتابعة في سقوف المنطقة الإسلامية قد هيأت بتمرحلها رجالا أوفياء للمناهج العلمانية والالحادية، لا يُخْدعون كما كان السابقون يخُـدعون، بـل يستثمرون المواقع السياسية والتربوية والاقتصادية لرغبا م وطموحا م، مقابل تمريـر الخطط الكافرة في مواقع التأثير والتجذير.

و ـذا تكون الفاجعة الكبرى..فاجعة الإسلام المطية.. والمسلمين المستسلمين.

لقد كان الرعيل الأول من سقوف المنطقة العربية والإسلامية أولي عقليات بسـيطة وسطحية، ولذلك وقع المستعمرون معهم معاهدات الصداقة والحماية مقابل دريهمات وقليل من العتاد.

وكان الحكام لا يدركون بيقين أبعاد هذه المعاهدات وخطرها على الإسلام والمسـلمين، وخاصة في زمنٍ كان الرعايا فيه في أمس الحاجة للأمن والغذاء والدواء.

أما الرعيل اللاحق وهم الوارثـون الأساسـيون للإسـفين الاسـتعماري الأول، والمتخرجون من مدارسه وكنائسه، وهم حملة الراية العلمانية في الـوطن المنكـوب؛ فهؤلاء كانوا أحد طرفي السمسرة بالقضايا، وأحد المنتفعين برحلة الإغراب الرسـمي

---

(١) « المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام » ص ٢١٧ – ٢١٩ للصـواف، و« غـزو في الصميم » لحبنكة ص ١٠٩.

عن الدين والديانة.

لقد استطاع المستعمرون الدهاة أن يخدعوا الحاكم والعالم والرعية، وأن ينتشر سماسر م المتخصصون في شرق الأرض وغربيها.. يعملون ليلا و ـارا يرسمون ويرسمون.. والساحة اليمنية كانت مثالا من هذه الأمثلة.. فحركة البترول في اليمن بدأت منذ عهد ترسيم الخرائط الأولى يوم كانت الوحدات البريطانية وأجنحتها العلمية تنتشر في أفجاج الوطن تحت مسمى «مكافحة الجراد»، وتحت هذا الاسم رسمت ووثقت كل المناطق الجبلية والسهول والهضاب والتلال والأودية.

وما من بئر بترولية ولا استثمار تجاري في ساحة الوطن اليوم إلا ويجب الحصول على خرائطه من المستعمر الأول، وهو أيضا المستثمر الأول عند بدء تدشين العمل للاستثمار الجديد.

والمستثمر الأول ألزم الشعوب الانتظار ؛ ليزج بقضية الاستثمار ورقةً رابحةً لخدمة المال والثروة وتشتيت العلاقات بين أهل الملة الواحدة.

ونبتت لحوم العشرات والمئات من الجماعات والفئات تحت عناية هذه السقوف الخطيرة، وتفهمت مشاريع التضحية بالإسلام مقابل الحضارة، والتدرج في الخطط الاستعمارية مقابل المصالح الاستثمارية، حتى نضجت الشروط، وتمكن الأخطبوط من صنع ا تمع الاستسلامي والمسلم الإعلامي. وكان من صنائع الخطط الاستعمارية في العالم الإسلامي **المتاجرة بالدين.**

والدين الإسلامي أساس الشرف، ومصدر العزة في السلف والخلف، وإليه يرجع الجميع عند الاحتكام، ومعرفة الفرق بين الحلال والحرام، ومن قواعده تتجدد العلاقات بين المسلم والكافر وبين المتدين البارد الذي يستغل المستعمرون بروده ويستثمرون شروده وحدوده .

والمهندسون العالميون قد عرفوا كيف يحسنون الخدعة في مسألة التـدين والديانـة، فكما ظهر على المسرح العالمي التناحر بين منظومتي الغرب والشرق علـى المسـتوى السياسي والاقتصادي؛ فقد صنعت هاتان القوتان **بؤراً سياسيةً واقتصاديةً** في **العـالم الإسلامي** تؤجج الصراع الفكري، وتروض الدعوة الإسلامية لقبول البدائل الممسوخة في العالم الإسلامي.

إن البؤر والبقع التجارية والسياسية ذات الصبغة المرحلية إحدى السياسات الاسـتراتيجية للنظام العالمي. و ا استطاع أن يكسب الجولات تلو الجولات سياسيةً وعسكريةً واقتصاديةً واجتماعيةً وديناً ودولةً.. وماذا بقي لنا نحن المسلمون؟

نعم، بقي لنا الخدمة وشرفها في رواقات الأنظمة المهزوزة، وشيء من معنى الوطنية الزائفة التي لا يقف عند مسؤوليتها حاكم أو قاض من القضاة عند رغبتـه في إمـرار الخيانة من خلال القرارات والأجهزة.

إن احترام القانون –كما يقولون- مسؤوليةٌ « وطنيةٌ » ، وتنفيذه والحفـاظ علـى شرفه كذلك ؛ ولكنا في غالب الأحوال نشهد –وفي وضح النهار- كيـف يتفـاهم الوطنيون بين عشية وضحاها مع من جرعوا شعو م العداوة لهم والحـرب ضـدهم أعواماً طويلةً، على اقتسام المصالح ، وترتيب حملة الحقائب وأبطال الأدوار السلطوية على خشبة مسرح المراحل.

والشعوب دائماً تخُدع ؛ ولكن رب الشعوب سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

سر حركة السقوف السياسية في الهيكل الإسلامي المعاصر

كثير من الناس - وربما كان من المثقفين وأُولي المعرفة - من يجهل حقيقة أثر الكافر في مسيرة العمل الإسلامية المعاصرة، ومثلها أثره في مسـيرة الاقتصـاد والسياسـة والاجتماع وغير ذلك.

ولعل هذه المسألة كانت سراً لصعوبة تعقبها أو التعـرف عليهـا إبـان مرحلـة الاستعمار، وأصعب من ذلك التعرف عليها إبان مرحلة الاستهتار ؛ ولكن مع التطبيع المستمر، وتغلغل يد الكافر في حياتنا المعاصرة بكافة صورها، صارت المؤامرةُ باديـةً لكل ذي عقلٍ ولُب مستبصر، بل ولم تعزب عن كل متتبع ومتفحص ممن يطّلع على ما كتبه المستشرقون ومهندسو الحركة العالمية في تقـاريرهم ومؤلفـا م وخططهـم الجهنمية التي يمزقون ا عالم الإسلام، ويحيكون ا مؤامرات الخدع وتعميق النـزاع، وتصفية الشعور الانتمائي بعزة الإسلام، وشرف الإسلام، في المسلم المتآمِر، أو المسلم المتفرنس، أو المتفرنج، أو المتمركس، أو سم ما شئت من مسميات المشاتل ومواقـع التفريخ العالمية، شرقيةً أو غربيةً أو توليفيةً.

فالمسلمون – بعيد تقسيمِ تركة الرجل المريض - دخلوا طوعـاً وكرهـاً إلى هـذه المشاتل وهم يحملون بعض معاني العزة وشرف الانتماء للإسلام وموقفه الواضح مـن الكافر، ومن بغض الانتماء لمؤسساته، وقد عانت مؤسسات الكفر والاستشراق كـثيراً من آثار هذه العزة الإسلامية ؛ ولكنها مع الزمن المتلاحق والجهد المتواصل روضـتِ ((ا تمع الإسلامي)) ليصير – بكل أسف – ((ا تمع الاستسلامي)).

ولم تقف عصبة الحركة العالمية في ترويض ا تمعات عند مسألة السقوف السياسية

وحدها، بل تمكنت من رسم خططها الفكرية عبر قنوات متعددة، بـدءاً بالسياسـة، ومروراً بالاقتصاد، ثم الإعلام والثقافة، ثم إلى التربية والتعليم، ثم إلى مجموع العلاقات الاجتماعية، وقد وصلت أخيراً - وعبر الجهود الطويلة - إلى مسألة الديانة والتدين.

ومع هذا كله - والآلاف من شرائح ا تمع الإسلامي بما فيهم الكثير من المفكرين والمنظرين وبعض رجالات الدين – لا زالوا إلى اليوم يعملون بجد واجتهاد على إنجاح المشاريع الكافرة وتمريرها داخل الخيمة الممزقة، منهم من يعمل ذلك اقتناعـاً بفشـل الإسلام عن قيادة الإنسانية أمام نماذج الواقع العلماني، ومنهم من يعمل ذلـك غبـاء وجهالة وقصر فهم في مسألة الإسلام وشموليته في المعالجـة، إذ ينظـر بعضـهم إلى الإسلام من زاوية معينة، تحت مفهومٍ معكوسٍ لمقولة: « من تدخل فيما لا يعنيه لقـي ما لا يرضيه » ومفهومٍ مغايرٍ لحديث: « اسمعوا وأطيعوا ولو تأمر عليكم عبدحبشي»، وينظر بعد ذلك إلى خدمته وعمله من زاوية أخرى.

ولا أستطيع هنا أن أرسم بوضوح لوحة الإيجابيات الاستعمارية التي أغرت أجيـالاً وعلماءَ ومثقفين ليقتنعوا بأن الكافر صديق مخلص، ورفيق مأمون، ما عدا التأكيد أ ا خدعة مبيتة استطاع العقل الكافر ا إقناع السذج وبسطاء الأمة – وبعض الطامعين في الحُطام والجاه والسلطة – على إتمام حلقات التطبيق المطروح في **عزل الدين عـن السياسة**.

فصار الحاكم الجاهل بالدين والدنيا يسخر العالم المتدين لخدمة الحكـم والسياسـة الاستعمارية المطاطية، عبر قنوات معينة لا تتعدى الفتوى والأنكحة ونشـر التعلـيم القرآني والكتابي ودراسة الفقه الإسلامي في حدود العبادات وشيء من المعـاملات، وما يسهم في خدمة عوام المسلمين وتسيير شؤو م الدينية، مع خداع مـن الحـاكم ذاته، ومماطلة وحيل في شؤو م الدنيوية من سياسةٍ واقتصاد، وسن قـوانين الأسـرة

والمرأة والتعليم والبيع والشراء، بل ربما خالفت ضوابطها الشريعة ذا ا، كما حصل في قرارات الدولة الشيوعية من تأميم وانتفاضات واستحلال للدماء.

لقد استطاع العقل الكافر أن يدبر مكيدةً في العلن ضد إسلامية المسلم وعزته بدينه وحدود شريعته، مستغلاً فقره وجوعه وضعف موارده وسلامة نيته، وحاجته الماسـة إلى التمتع بأسباب الحياة المادية.

وكما ذكرنا سلفاً أن الشرائح الأولى من الحكام والعلماء – إبان مرحلـة المغازلـة الكفرية للأرض الإسلامية – كانت مضطرةً في بعض الأحوال لعقد المعاهدات مـع الكافر بغية تأمين الحياة الاجتماعية من فوضى القبائل الناهبة، وإيقـاف النـزيف الدموي المتمثل بالثأرات والصراعات داخل ا موعات القبليـة والبيـوت الحاكمـة المتناحرة، فقَبِل المضطر منهم أهون الشرين، وخاصة أن السياسة الكفرية كانت رافعةً راية السلام المبطن، ومجزِلَةً للمساعدات والهبات، دون شروط أو إلزامات مجحفة في ظاهر الرؤية.

فمثلاً قَبِل بعض رجال الدولتين الكثيرية والقعيطية في حضرموت -ومعهم بعـض الوجهاء في الدولتين -دخول الحماية البريطانية إلى المنطقة مقابل إيقـاف الحـروب الطاحنة بين السلطنتين، وتأمين الطريق للمسـافرين، وتحريـك التجـارة الداخليـة والخارجية، والحصول على أهم مقومات الغذاء والدواء إبان ا اعة القارصـة الـتي عمت البلاد، ولبت بريطانيا الطلب في أسرع وقت، و يأت أسباب الرخاء المؤقت في المنطقة بعمومها.

ولكن الحقيقة المرة أن بريطانيا لم تدخلْ للأهداف المذكورة آنفاً، بل صـار شـأ ا شأن تدخلا ا المعهودة إلى اليوم في عالمنا العربي والإسـلامي مـن دول الاسـتعمار

والاستهتار والاستثمار، هذه التدخلات التي جلبت على العالم الإسلامي الذل والعار والإهانة، وسلبته شخصيته وقراره وموقعه من الحركة في العالم، وأفـرزت مراحـلَ حكمها الجيلُ الاتكالي، والمسلم الإعلامي، ذوالمنـزع الاستسلامي، ورضي الغالبيـة بعيش الخيانات، وهتك الحدود، وإعادة الدعوات القومية والعصبية، وتشطير المنطقـة العربية والإسلامية إلى نواحي ومشيخات وسلطنات ودويلات، ومـا شـا ها مـن التشرذمات المناطقية الضيقة.

بل وأفرزت هذه المراحل عقليات إعلامية ترفض اجتماع الأمة وإعادة ترتيبها على الأسس السـليمة ، وتـرى أن الانقسـام والتشـرذم مطلـب وطـني ، وهـو - في حقيقته – مطلب ذاتي ، نشأت به مصالح معينة واصطدمت بمصـالح تشـبهها فاستثمر المستعمر الجهتين ، وصار وصياً على الأمة ومقـدرا ا ودينـها وعز ـا ، وحارسا لحدودها المصطنعة ، وحكما فيصلا يرجع إليه عند الاختلاف، وتقبل وجهة نظره بلا خلاف.

لقد روض العقلُ الكافر مسلم الاستعمارِ على حسنِ التفاهم في قضـايا المعيشـة والتعليم والحُكم، وبذل له في سبيلها ما لم يحلم به العقل العربي البسيط، ومنه كـان المقتل، كما قال الشاعر :

كـم حسـنت لَـذةً للمـرءِ قاتِلَـةً

من حيث لم يدرِ أنّ السـم في الدسـمِ

--------------------------فاصل صفحات--------------------------

«اللغز الأخير» في لعبة السقوف الجاهزة

لا مهرب لنا جميعا من إعادة الأمر إلى أهله ، سواء في مسألة معالجة علة السقوف ، أو مسألة معالجة الانحراف في الدين والتدين . والكثير من أهل عصرنا ، وخاصة من **منسوبي الحركة سياسية وإصلاحية واجتماعية** يشعرون بعدم حاجتهم لفتح غوامض **الألغاز** ، ويكتفون بتحريك الأمور وفق الظواهر القائمة ، ويرغبون في عدم الإثارة لمدلولات الكتاب والسنة حول القرار إذا جاءت من وجهة نظر الآخرين ، وخاصة ممن ينتمون إلى المدارس التقليدية ، ويرون أن ال**مدرسة التقليدية** قد انتهى دور أتباعها، وقد فرغت المدرسة الحديثة من شأن محاكمتهم وإصدار الحكم الأخير على عقائدهم ، فليس لهم في **إدارة الحركة السقفية** أي موقع.

ونعتقد – والله أعلم – أن هذه الرؤية - برغم شمولها في الواقع المعاش ، وعليها يتوقف سير السقوف وبناء القواعد – أنها رؤية غثائية الصورة والمعنى ، وأنها استمرار للإغراب بقافلة الأمة عن المسار الصحيح وتحريف خطير لمسارها المشروعة، وهي بلا شك المطية السريعة لوصولنا جميعا إلى مشارف جحر الضب .

وهاقد وصلنا إليه.. ومعنا رموز الصحوة الإسلامية وعناصرها الانفعالية والقتالية ، ولا أعلم أن بين أيدينا **على كافة مذاهبنا ومواقفنا** مخرجا واضحا يسلك بنا طريقا غير طريق **الجحر الضبي الضيق** . وخاصة فيما يعالج القضايا المصيرية العالمية ، وما نرسم به وحدتنا الإسلامية المصيرية في الأفق المعتم.

لأننا جميعا وإياهم لا نمتلك قرارا ، ولا نستظل بسقف متماسك الأبنية يقف على **قواسم الإسلام**.

بينما نشهد سقوف الحركة الكافرة وذيولها المتحركة تمتلك قرار الحرب والسلم وقـرار العالمية المادية ، وتستظل بالسقف العالمي الموحد ، برغم صراخنا عن الجدارة من فراغ.

ولعل رسم اسباب الهزيمة مع طرح مخارج الأمة منها خير من كتم الهزيمة مقابل الانتفـاع بعائدا ا ، وأسباب الهزيمة **معلومة بالكتاب والسنة** ، والمخرج منها العود الواعي لأمرين:

الأول: إعادة صياغة مدلولات الأصلين العالميين الكتاب والسنة على ما كانت عليه قبل مرحلة الغثاء ؛ حيث إن هذين الأصلين قد تعرضا في مدلولا ما لإغفال متعمـد وحذف مقصود وتحريف للأهداف والغائيات المرادة، منذ وضعت عناصـر الابتـزاز يدها على مواقع التأثير وامتلاك القرار **سياسةً واقتصاداً وتربيةً وتعليماً وثقافةً.**

والثاني: العملُ الدؤوب والبحث الأكيد عن **كيفية صياغة القرارات** ومن يهندسـها في السقف الإسلامي ا رد ، بعيدا عن التأثيرات والضغوط وا املات الزائفة وتعبئةُ الأمة من جديد للاستظلال بالدوحة الإسلامية الوارفة.. **الخلافة**.. ولا يمكن بغيرها أن نصل إلى امتلاك قرار.

والخلافةُ في عالمنا الإسلامي نـزعت عن سقفنا السياسي بالمؤامرات والدسـائس، واشترك في هذه المؤامرة **أكلة القصعة** الذين يهندسون مستقبلنا ويرعـون حاضـرنا اليوم، ويصيغون للأسقف المنهارة خطوط الحركة وخيوط الهزائم المتتالية.

وهذه هي المشكلة التي طال أمدها ، و ا تثار الحساسية لدى المنـتفعين بـالهزائم، ولأجل نسيا ا ومسخها عن الوجود **أعيد ترتيب المعرفة القرائية لمصادر التشـريع،** وترويض العالم الإسلامي على قبول سياسة التطبيع ، مرحلةً بعد مرحلة، حتى بلغـت المسألة في بعض مواقع السقوف المصنوعة إغفال الآيات القرآنية المتعرضـة لمواقـف الإسلام ضد اليهود ، وإزاحتها من المناهج المدرسية . وهذا مجرد إضافة موعـات

الهزائم المتلاحقة في الأمة المغلوبة على أمرها في كل مكاسبها المشروعة.. وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ﱡإنمّا أمره إذا أراد شيئاً أنْ يقُولَ لَه كُن فيكُون ﱠ [يس: ٨٢] ﱡفسـبحانَ الله حِـين تمسونَ وحِين تصبِحون . ولَه الحَمد في السماواتِ والأرضِ وعشِياً وحِين تظْهـرونَ. يخرِج الحَي مِن الميتِ ويخرِج الميت مِن الحَي ويحيِي الأرض بعد موتهـا وكـذلك تخرجون ﱠ [الروم:١٧-١٩].

الفهرس